نعم اللّه تعالي

أسباب زيادتها، وأسباب زوالها

في ضوء القرآن الكريم

دراسة موضوعية

إعداد الدكتور

ربيع يوسف شحاته الجهمي

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، خير من عبد الله تعالى وشكره، وخير من قام لله تعالى وذكره، حتى تورمت قدماه، فسئل في ذلك فقال صلوات ربي وسلامه عليه: (أفلا أكون عبد شكورا)(١).

وبعد،

فإن نعم الله تعالى تغمرنا وتحيط بنا من كل جانب، وكثرتها ومظاهر آثارها لا تحصى ولا تعد؛ قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ولقد أمرنا الله عز وجل بشكره على نعمه حيث قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۖ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤]. وأخبرنا عز وجل أننا مسئولون يوم القيامة عن شكر نعمه فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨].

ووعدنا الله تعالى بالزيادة على الشكر فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وتوعدنا بالعذاب على الكفران فقال: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة: ٤/ ٢١٧١، ح(٢٨١٩) و(٢٨١٩) مكرر.

فوجب على المؤمن أن يستفرغ جهده في شكر الله تعالى على نعمه، وأن يبحث عن أسباب زيادتها فيأخذ بها، وعن أسباب زوالها فيحذر منها، ويكون على يقين أن عمله هذا لا يوجب له على الله تعالى شيئا، فإن الله تعالى لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء، فإن زاده الله تعالى فبفضله، وإن منعه الزيادة أو سلب منه النعمة فبعدله، لكنه تعالى هو الكريم الرحيم، وقد وعد بالزيادة على الشكر، وتوعد بالسلب على الكفران، والله تعالى وعده الحق، وقوله الصدق، وهو عز وجل لا يخلف الميعاد، وما دام العبد قد أخذ بأسباب الزيادة، وابتعد عن أسباب الزوال، فقد قام بما أمره الله تعالى به، وانتهى عما نهاه عنه، والله تعالى يفعل ما يشاء وفق حكمته وإرادته.

وقد تدبرت في كتاب الله تعالى فوفقني عز وجل للوقوف على أسباب زيادة النعم وأسباب زوالها، وقد ضمنتها جميعا هذا البحث المتواضع، وأسميته: **(نعم الله تعالى. أسباب زيادتها، وأسباب زوالها، دراسة موضوعية)**،

أسباب اختياري هذا الموضوع:

١- توفيق الله تعالى ومشيئته العلية، فهو الذي شرح صدري لهذا الموضوع، وحببه إلى نفسي، وذلل لي الصعاب في معالجته.

٢- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى.

٣- خلو المكتبة القرآنية – في حدود علمي – من بحث يتناول هذا الموضوع بالتحديد.

٤- إجازة بعض أساتذتي وشهادتهم بأهمية الكتابة في هذا الموضوع.

خطة البحث:

وقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية البحث، وأسباب اختياره، وخطته، ومنهجه.

التمهيد: في المراد بـ (نعم الله تعالى). والمراد بالأسباب وحكم الأخذ بها.

المبحث الأول: أسباب زيادة النعم في ضوء القرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السبب الأول والرئيس: الإيمان بالله تعالى.

المطلب الثاني: السبب الثاني: القيام بشكر الله تعالى على نعمه.

المبحث الثاني: أسباب زوال النعم في ضوء القرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السب الأول: الكفر بالله تعالى.

المطلب الأول: السبب الثاني: كفران النعم.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

سرت في هذه البحث على المنهج الموضوعي، حيث جمعت الآيات الكريمة التي يدور موضوعها حول أسباب زيادة النعم، والتي يدور موضوعها حول أسباب زوالها، وصنفتها على حسب موضوعها. وقمت بدراسة هذه الآيات دراسة تحليلية موجزة، تظهر وجه الاستدلال بها في موطنها الذي ذكرت فيه. وراعيت أثناء ذلك ما يأتي:

١- عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها.

٢- تخريج الأحاديث النبوية والحكم عليها، وكذا تخريج الآثار.

٣- توثيق الأبيات الشعرية، وعزوها إلى قائليها.

٤- ترجمة الأعلام غير المشهورين ترجمة موجزة.

٥- التوفيق بين الآراء ما أمكن ذلك.

٦- توثيق النقول والتعليق عليها عند الحاجة لذلك.

والله تعالى أسأل أن يوفقنا لأداء حقوق نعمه، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، فإني بشر أصيب وأخطئ، فما كان

من صواب فمن فضل الله تعالى علي وكرمه، وما كان من خطأ فمن نفسي، ويعلم ربي أني ما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالى أن المجتهد مأجور على الحالين، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دكتور/ ربيع يوسف شحاته الجهمي
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

تمهـــيد

أولا: المراد بـ (نعم الله تعالي)

أما تعريف النعمة في اللغة: فهي اسمٌ مِنْ أَنْعَم اللهُ عليه يُنْعِمُ إنعاماً ونِعْمةً، أُقيم الاسمُ (النعمة) مُقامَ المصدر (الإنْعام)، كقولك: أَنْفَقْتُ عليه إنْفاقاً ونَفَقَةً بمعنى واحد. يقال: فلانٌ واسعُ النِّعْمةِ: أي واسعُ المالِ.

والنعمة: الرفاهة وطيب العيش، يقال: هو في نعمة عيش، أي: في حسنه ولينه. وَتَنَعَّمَ: تَنَاوَلَ ما فيه النِّعْمَةُ وطِيبُ العَيْشِ، ويقال: نَعَّمَهُ تَنْعِيماً فَتَنَعَّمَ: أي: جَعَلَهُ في نِعْمَةٍ، أي: لِينِ عَيْشٍ وخَصْبٍ، قال تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] والنعمة أيضا: اليدُ البَيْضاء الصالحة والصَّنيعةُ والمِنَّة وما أُنْعِم به عليك، والجمع: نِعَمٌ، وأَنْعُمٌ.

ونِعَمُ الله تعالى وأَنْعُمُه: مننه تعالى وعطاياه للعباد، مما لا يُمْكن أَن يُعْطيَها غيره إياهم، كالسَّمْع والبصَر.

والنَّعْمةُ بالفتح: التَّنْعِيمُ، يقال: نَعَّمَه الله وناعَمه فتَنَعَّم. ونَعِمَ الرجل يَنْعَم نَعْمةً فهو نَعِمٌ بيِّنُ المَنْعَم، وهي أيضا: المسرّة والفرح والترفُّه. والتَّنَعُّمُ: التَّرَفُّه، والإنْعَامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ[1].

وأما تعريف (نعم الله تعالي) اصطلاحا:

فمن خلال ما سبق يمكن تعريفها بأنها: "مِنَنُ الله تعالى وعطاياه للناس وفضله عليهم وإحسانه إليهم، في النفس وفي الآفاق، في الدين والدنيا والآخرة".

– وقد ورد الحديث عن النعم في القرآن الكريم بلفظ (الآلاء)[2] أيضا: قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) الصحاح للجوهري: ٥/ ٢٠٤١، ولسان العرب لابن منظور: ٥٧٩/١٢، والمعجم الوسيط: ٩٣٥/٢، والمفردات للراغب: ص٤٩٩. مادة (نعم).

(٢) الآلاء في اللغة: النِّعَمُ، واحدها أَلىً بالفتح، وإِلْيٌ، وإِلىً؛ وقال الجوهري: قد تكسر وتكتب بالياء مثل: مِعىً وأَمْعاء [لسان العرب: ١٤/ ٤٣، والمفردات للراغب: ص٨٤. مادة (إلى)].

* ولفظ الآلاء: يطلق على النعم العظيمة، بينما لفظ النعم يطلق على القليل والكثير [الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ١/ ١٩٤، ١٩٥].

[الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١٠- ١٣].

وها هنا أمران ينبغي التنبيه عليهما:

الأمر الأول: **أن الله تعالي ولي كل النعم على كل الخلق**:

فما من نعمة في هذا الكون إلا وهي من فضل الله تعالى، فهو سبحانه المتفضل على كل الخلق بكل النعم، حتى لو وصلت بعض النعم عن طريق الخلق؛ فالمنعم بها في الحقيقة هو الله تعالى؛ لأنه عز وجل الخالق لكل النعم، ولمن أنعم بها، ولداعية الإنعام بتلك النعم في قلب من أنعم بها.

وإن المتدبر للقرآن الكريم لتتجلى لناظريه هذه الحقيقة العظيمة في آياته الكريمة:

أولا: يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

أي: وما يكن بكم، أو وما حل بكم، أو لابسكم أيها الناس عامة، مؤمنكم وكافركم، من نعمة في النفس وفي الآفاق، جلَّت أم صغرت، خفيت أم ظهرت؛ فهي من قِبَلِ الله تعالى، أي من فضله تعالى وإحسانه(١).

قال ابن عطية: "ومعنى الآية التذكير بأن الإنسان في جليل أمره ودقيقه إنما هو في نعمة الله وأفضاله، إيجاده داخل في ذلك فما بعده"(٢).

---

(١) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٢/ ١٠٤، وجامع البيان: ١٧/ ٢٢٤، ومعاني القرآن للزجاج: ٣/ ٢٠٤، ومعاني القرآن للنحاس: ٤/ ٧٣، والكشاف: ٢/ ٦١١، والمحرر الوجيز: ٣/ ٤٠٠، وزاد المسير: ٢/ ٥٦٥، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١١٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٠٠.

فالمراد بالنعمة هنا عموم النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس؛ لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد في معنى الجمع- اعتمادا على القرينة- من أبلغ الأساليب الكلامية(١).

ثانيا: أن لفظ النعمة وما يرادفه لم يذكر في القرآن الكريم إلا مضافا إلى الله تعالى، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١٣]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

والأمر الثاني: أن نعم الله تعالى لا تحصى ولا تعد:

فلقد أنعم الله تعالى على الناس جميعا بما لا يعد ولا يحصى من النعم، الدينية، والدنيوية، والأخروية، الظاهرة والباطنة، العامة والخاصة، المادية والمعنوية، نعم في النفس ونعم في الآفاق، نعمٌ تحيط بالناس من كل جانب ومن كل جهة؛ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، والكون كله ينطق بنعم الله تعالى وفضله، بما لا يستطيع الخلق جميعا حصره أو عدَّه إجمالا فضلا عن التفصيل.

ولقد نص الله ﷻ على هذه الحقيقة العظيمة في موضعين من كتابه الكريم:

---

(١) التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي: ٨/ ١٦٨.

الأول: قوله تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والثاني: قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

والشاهد في الآيتين قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ﴾، والمعنى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: وإن تحاولوا عدَّ نعم الله تعالى، أو: وإن تحاولوا عدَّ تفاصيل نعمة واحدة من نعمه تعالى ﴿لَا تُحْصُوهَا ۗ﴾ أي: لا تستطيعوا عدَّها ولا حصرها، ولا القيام بشكرها بوجه من الوجوه، لأنها غير متناهية، هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال، فضلا عن التفصيل؛ إذ لا يقدر على الأمرين إلا الله تعالى(١). وأصل الإحصاء: العد بالحصا، فإن العرب كانوا يعتمدونه في العد، ثم استعمل لمطلق العد(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ مع أن عدم استطاعة الإحصاء مقطوع بها؛ لأنها مستحيلة؛ نظراً إلى توهم أنها تطاق(٣).

(١) يراجع: معالم التنزيل: ٤/ ٣٥٤، والكشاف: ٢/ ٦٠٠، والمحرر الوجيز: ٣/ ٣٨٥، والبحر المحيط: ٦/ ٤٤١، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٥٦٤، وتفسير أبي السعود: ٥/ ١٠٥، وروح المعاني: ٧/ ٢١٣، وفتح القدير: ٣/ ١٣٢، ومحاسن التأويل: ٦/ ٣٦٠، وغيرها.

(٢) المفردات للراغب: ص٢٤٠، وروح المعاني: ٧/ ٢١٣.

(٣) روح المعاني: ٧/ ٢١٤.

ثانيا: المراد الأسباب وحكم الأخذ بها:

وهاهنا مسألتان:

المسألة الأولي: المراد بالأسباب، وحكم الأخذ بها:

(أ) المراد بالأسباب:

* **أما في اللغة:** فالأسباب: جمع سبب، والسبب: الحبل، قالوا ولا يدعى الحبل سبباً حتى يُنزل ويُصعد به، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ [ص: ١٠] أي: فليصعدوا في المعارج والطرق الموصلة إلى السماء فيدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون، وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه. ويقال: تقطعت بهم الأسباب، أي: أعيتهم الحيل؛ كقوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦] أَي: الوُصَل والمَوَدَّات.

ثم استعير السبب لكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور، فقيل: هذا سبب، وهذا مسبب عن هذا، ثم قيل: لكل شيء سبب؛ لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذي تريده، قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف: ٨٥] أي: أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها، فأتبع واحدا من تلك الأسباب، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]: أي لعلي أعرف الذرائع والأسباب الحادثة في السماء، فأتوصل بها إلى معرفة ما يدعيه موسى(١).

* **وأما في الاصطلاح:** فللسبب تعريفات متعددة بحسب اصطلاح العلوم، فتعريفه عند الأصوليين والفقهاء، غيره عند المتكلمين والفلاسفة، غيره عند العروضيين، غيره عند المفسرين.

---

(١) لسان العرب: ١/ ٤٥٥، والمعجم الوسيط: ١/ ٤١١ مادة (سبب)، والمفردات للراغب: ص٢٢٠، والكشاف: ٤/ ٧٧، والتفسير الكبير: ٤/ ١٩٠.

والذي يخصنا هنا هو تعريف المفسرين، وأقوالهم في ذلك قليلة[١]:

قال الزمخشري: "السبب: ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة"[٢]. ونقله جمع من المفسرين[٣]. وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[الكهف: ٨٤، ٨٥]: "والسبب في هذه الآية، الطريق المسلوكة، لأنها سبب الوصول إلى المقصد"[٤]. وقال الطاهر بن عاشور: "السبب في معنى العلة"[٥].

وجاء في المعجم الوسيط: "السبب في الشرع: ما يوصل إلى الشيء ولا يؤثر فيه"[٦].

ويستفاد من كل ما تقدم أن السبب هو: "ما يتوصل به إلى أمر من الأمور، سواء كان حسيا أم معنويا".

(ب) أقسامها باعتبار حكمها الشرعي:

تنقسم الأسباب باعتبارات كثيرة، وما يخصنا هو تقسيمها باعتبار حكمها الشرعي، وتنقسم إلى قسمين[٧]:

---

(١) يراجع: المفردات للراغب: ص٢٢٠، والكشاف: ٤/ ٧٧، والمحرر الوجيز: ٤/ ٥٦٤، والتفسير الكبير: ٤/ ١٩٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٥٣، وفتح القدير للشوكاني: ١/ ٢٥٦، وغيرها.

(٢) يراجع: الكشاف: ٤/ ٧٧.

(٣) يراجع: مدارك التنزيل للنسفي: ٢/ ٣١٦، والتسهيل لابن جزيء: ١/ ٤٧٣، وغرائب القرآن للنيسابوري: ٤/ ٤٥٨، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٥/ ٢٤٢، وروح المعاني للآلوسي: ٨/ ٣٥٢، ومحاسن التأويل للقاسمي.

(٤) يراجع: المحرر الوجيز: ٤/ ٥٦٤.

(٥) يراجع: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٧٧.

(٦) يراجع: المعجم الوسيط: ١/ ٤١١، مادة (سبب).

(٧) مستفاد من: الأسباب والمسببات في القرآن الكريم للدكتور صبري منصور صيام: ص٢٣١- ٢٣٥، ٣٢٦- ٣٢٨، بتصرف وتلخيص وزيادة. [رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر].

القسم الأول: أسباب مطلوبة شرعا: وهي الأسباب التي تؤدي إلى مصلحة معتبرة شرعا، في الدنيا أو في الآخرة، وتتمثل في جميع ما شرعه الله تعالى على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة.

وذلك مثل الجهاد في سبيل الله تعالى، فإنه سبب في إعلاء كلمة الله تعالى، ومثل القصاص، فإنه سبب في حفظ الأنفس، ومثل حد السرقة، فإنه سبب في حفظ المال، ومثل عمل الصالحات، فإنه سبب في دخول الجنة.

*** وقد أمرنا الله تعالى بالأخذ بالأسباب في آيات كثيرة، ومنها:**

قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أخرج البخاري في سبب نزوله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ ولا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا الناس؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾)[(١)].

فقد أمر الله تعالى بما يتبلغ به المرء في سفره، فمن قدر على أن يستصحب زادا ولم يستصحبه كان عاصيا[(٢)]؛ لتركه التسبب فيما يتبلغ به في سفره، فالآية الكريمة صريحة في الأمر بالأخذ بالأسباب في بلوغ المراد.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء: ١٠٢].

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾: ٢/ ٥٥٤، ح(١٤٥١).

(٢) يراجع: التفسير الكبير: ٥/ ١٤٤.

قال الرازي: "دلت الآية على وجوب الحذر عن العدو؛ فيدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء، والاحتراز عن الوباء، وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً، والله أعلم"(١).

وقال الطاهر بن عاشور: "فليس الأمر بأخذ الحذر والسلاح إلاّ لتحقيق أسباب ما أعدّ الله لهم، لأنّ الله إذا أراد أمراً هيَّأ أسبابه، وفيه تعليم المسلمين أن يطلبوا المسبَّبَات من أسبابها، أي: إن أخذتم حِذركم أمِنتم من عدوّكم"(٢).

ولم يجعل الله تعالى الأخذ بالأسباب – المشروعة – نافلة من النوافل، بل جعله من الواجبات التي يأثم المسلمون بتركها إن استطاعوا الأخذ بها ولم يفعلوا، ولذلك توعد من تركوا الأخذ بالأسباب؛ فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧].

أخرج البخاري في سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾)(٣).

فهؤلاء آثمون؛ لأنهم لم يأخذوا بالأسباب، فيخرجوا من بلاد الكفر التي اضطهدوا فيها وعذبوا، إلى بلاد الإيمان، وأرض الله تعالى واسعة.

والقسم الثاني: أسباب ممنوعة شرعا: وهي الأسباب التي تؤدي إلى مفسدة معتبرة شرعا، في الدنيا أو في الآخرة، وتتمثل في جميع ما نهى الله تعالى عنه، سواء كان النهي على سبيل التحريم أو على سبيل الكراهة.

---

(١) التفسير الكبير: ٥/ ١٤٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/ ١٨٨.

(٣) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: التفسير، تفسير سورة النساء، باب: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾: ٤/ ١٦٧٨، ح(٤٣٢٠).

وذلك مثل التنازع، فإنه سبب الفشل وضعف القوة، ومثل اتباع الهوى، فإنه سبب في الضلال عن سبيل الله تعالى، ومثل التولي يوم الزحف، فإنه سبب في دخول جهنم.

* وقد نهانا الله تعالى وحذرنا من الاقتراب من هذه الأسباب، وذلك في كل موضع ذُكِرت فيه؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦].

والمسألة الثانية: أنه لا يجب على الله تعالى شيء:

أجمع أهل السنة والجماعة على أنه لا يجب على الله تعالى لأحد شيء البتة، وأن ما أنعم الله تعالى به فهو بفضله، وما منعه أو سلبه من نعم فهو بعدله، فالمُلْك مُلْكه، وليس لأحد عليه استحقاق. فلا يجب على الله تعالى إثابة الطائعين ولا عقاب العاصين، فإن أثاب فبمحض فضله، وإن عاقب فبمحض عدله، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص: ٦٨]. بل له تعالى إثابة العاصي وعقاب المطيع أيضا، وليس لأحد عليه اعتراض؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة ١٧][1].

(١) يراجع: متن العقيدة الطحاوية: ص١١، ولمع الأدلة للجويني: ١/ ١٢٢، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ص٨٩ – ٩٦، وقواعد الاعتقاد للغزالي: ص٢٠٥ – ٢٠٩، والتفسير الكبير: ١٢/ ٣٨، و١٤/ ١٠١.

** وما ورد من نصوص قرآنية يوهم ظاهرها وجوب شيء على الله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦]؛ حيث يوحي لفظ (على) في الآية الأولى بأنه يجب على الله تعالى قبول التوبة؛ وفي الثانية بأنه يجب على الله تعالى إيصال الرزق إلى كل دابة.

فإنه كما قال الرازي: "وجوب بحسب الوعد والكرم والفضل والإحسان، لا وجوب الاستحقاق"(١). والله تعالى لا يخلف الميعاد.

وزاد ابن عطية وجها آخر وهو: "أنه على تقدير حذف مضاف، والتقدير: على فضل الله ورحمته لعباده"(٢).

وبناء عليه: فإن على العبد أن يأخذ بأسباب زيادة النعم، ويتقي أسباب زوالها، ويكون على يقين أن عمله هذا لا يوجب له على الله تعالى شيئا، فإن الله تعالى لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء، وليس لأحد عليه استحقاق، فإن زاده الله تعالى فبفضله، وإن منعه الزيادة أو سلب منه النعمة فبعدله، لكنه تعالى هو الكريم الرحيم، وقد وعد بالزيادة على الشكر، وتوعد بالسلب على الكفران، والله تعالى وعده الحق، وقوله الصدق، وهو عز وجل لا يخلف الميعاد.

وما دام العبد قد أخذ بالأسباب، فقد قام بما أمره الله تعالى به، والله تعالى يفعل ما يشاء وفق حكمته وإرادته، والله تعالى أعلم.

******

(١) يراجع: التفسير الكبير: ١٠/ ٦، و١٧/ ١٤٩.

(٢) يراجع: المحرر الوجيز: ٢/ ٢٨.

المبحث الأول
أسباب زيادة النعم
في ضوء القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **السبب الأول والرئيس**: **الإيمان بالله تعالي**.

المطلب الثاني: **السبب الثاني**: **القيام بشكر الله تعالي**.

المبحث الأول

أسباب زيادة النعم في ضوء القرآن الكريم

تمهيد:

المراد بزيادة النعم:

الزيادة في اللغة: النُّموّ، وَالزِّيَادَةُ: خِلَافُ النُّقْصَانِ، وزَاد الشيءُ يزيدُ زَيْداً وَزِيَادَةً وَزِيَادًا ومَزِيداً ومَزاداً أَي ازدَاد. وَزِدْتُهُ أَنا أَزيده زِيَادَةً: جَعَلْتُ فِيهِ الزِّيَادَةَ. وَاسْتَزَدْتُهُ: طَلَبْتُ مِنْهُ الزِّيَادَةَ. يُقَالُ لِلرَّجُلِ يُعْطَى شَيْئًا: هَلْ تزدادُ؟ الْمَعْنَى هَلْ تَطْلُبُ زِيَادَةً عَلَى مَا أَعطيتك؟ وَزَادَهُ اللَّه خيراً وزاد فِيمَا عِنْدَهُ. والْمَزِيدُ: الزِّيَادَةُ[1]. إذًا: لفظ الزيادة يدور في اللغة حول النمو والبركة.

وبناء عليه، ولأن فضل الله تعالى ليس له حد، ونعمه لا تحصى ولا تعد؛ وهو عز وجل يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]: فإن زيادته عز وجل للنعم تعني زيادة النمو والبركة فيما أنعم به، كما تعني زيادة نعم جديدة لم تكن؛ وهذا ما نراه ونحسه آناء الليل وأطراف النهار.

وقد تفضل الله سبحانه بجوده وكرمه فجعل لنا أسبابا نأخذ بها لأجل زيادة النعم، وتبين لي من خلال تدبر آيات القرآن الكريم أن هذه الأسباب ترجع إلى سببين، هما:

السبب الأول والرئيس: الإيمان بالله تعالى.

السبب الثاني: شكر الله تعالى على نعمه.

فإذا أخذ المؤمن بهذين السببين كان آخذا بأسباب زيادة النعم، وله بإذن الله تعالى زيادتها؛ كما وعد الله تعالى؛ فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، والله تعالى لا يخلف الميعاد، فقد يعجل له زيادة النعم

(١) لسان العرب: ٣/ ١٩٨، ١٩٩، ومختار الصحاح: ص١٣٩، والمصباح المنير: ص٢٦١. مادة (زيد).

في الدنيا، وقد يدخرها له في الآخرة، وقد يدفع عنه من السوء ما لا يعلمه، وقد لا يكون هذا أو ذاك، فالله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يجب عليه تعالى شيء، وقيام العبد بالشكر قيام بما أوجبه الله تعالى عليه عبادة له سبحانه.

وهذا بيان وتفصيل لهذين السببين في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

السبب الأول والرئيس: الإيمان بالله تعالي

لا ريب أن الإيمان بالله تعالى هو السبب الرئيس في كل خير يصيب المؤمن في الدنيا والآخرة، وبدون الإيمان يخسر الإنسان كل خير فيهما؛ حتى لو عاش ومات وهو أغني ملوك الأرض، يرفل في شتى صنوف النعم. ذاك أن الله تعالى ينعم على كل الناس، لكنَّ نعمه تعالى تصير على المؤمن بسبب إيمانه نعما في الظاهر والباطن، وتصير على الكافر بسبب كفره نعما في الظاهر نقما في الباطن، فإذا أعطى الله تعالى المؤمن أعطاه منعما عليه، وإذا أعطى الكافر أعطاه مستدرجا له.

ومن الآيات الكريمة الدالة على أن الإيمان سبب في زيادة النعم ما يأتي:

(١) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]

والشاهد: أن الله تعالى جعل الإيمان به وتقواه شرطا لزيادة النعم؛ أما جملة الشرط فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ وأما جملة الجواب فقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. والمصدر المؤوّل من أن واسمها (أن أهل القرى) في محل رفع فاعل لفعل محذوف تقديره "ثبت" والتقدير: ولو ثبت إيمان أهل القرى وتقواهم لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض[١]. إذًا حصول الإيمان سبب في زيادة النعم.

والمعنى[٢]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: جنس القرى، لا قرى خاصة[١]، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمرهم به، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرمه الله

(١) يراجع: إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش: ٣/ ٤١٢، ٤١٣، والجدول في إعراب القرآن لمحمود عبد الرحيم صافي: ٩/ ١٦، وإعراب القرآن لأحمد الدعاس: ١/ ٣٨٠.

(٢) يراجع: الوسيط للواحدي: ٢/ ٣٨٩، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢٢٦، والكشاف: ٢/ ١٣٣، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤٣٢، وزاد المسير: ٢/ ١٤٠، والتفسير الكبير: ١٤/ ٣٢٢،

عليهم من الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لَوَسَّعنا عليهم الخير من كل وجه، ويسرناه لهم من كل جانب، من السماء والأرض(٢)؛ فالآية عامة(٣) في كل ما يفتحه الله من خيري السماء والأرض، ولذلك جاء لفظ (بركات) نكرة. فإذا أضفنا إلى ذلك قراءة ابن عامر: (لفتَّحنا) بالتشديد، وهو للتكثير(٤)، ظهر أن ما يفتحه الله تعالى من نعم بسبب الإيمان لا يعد ولا يحصى.

(٢) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

والجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٥٣، ولباب التأويل: ٢/ ٣٢٠، والبحر المحيط: ٥/ ١١٩، والدر المصون: ٥/ ٣٩٠، وتفسر ابن كثير: ٣/ ٤٥١.

(١) قيل: المراد بالقرى: القرى المُهلَكة المدلول عليها بقوله تعالى قبلُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤]، وقيل المراد: مكة وما حولها من القرى، وقيل المراد: جنس القرى، وهو اختيار بعض المفسرين، **وهو الأَوْلى في رأيي**، وإن كان سياق الآية في قوم مخصوصين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولعدم وجود ما يخصص الآية، فالأَوْلى حملها على العموم في كل من آمن واتقى. [يراجع: إرشاد العقل السليم: ٣/ ٢٥٣، وفتح القدير: ٢/ ٢٥٩].

(٢) البركات: جمع بركة: وهي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك، وفيه بركة".[مفردات القرآن للراغب: ص١١٩].

* قيل: المراد ببركات السماء: المطر، وببركات الأرض النبات. وقيل: بركات السماء: قبول الدعاء. وبركات الأرض: تسهيل الحاجات. والأَوْلى: حملها على العموم. [النكت والعيون: ٢/ ٢٤٣، والوسيط للواحدي: ٢/ ٣٨٩، ومعالم التنزيل: ٣/ ٢٦٠، والتفسير الكبير: ١٤/ ٣٢٢].

(٣) البحر المحيط: ٥/ ١١٩، وفتح القدير: ٢/ ٢٥٩.

(٤) إتحاف فضلاء البشر للبنا: ص٢٨٦، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه: ١/ ١٥٧.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢ – ١٧٤]. وهذه الآيات الكريمة واردة في سياق الحديث عن غزوة أحد.

والشاهد فيها: أن الله تعالى مدح أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم لثباتهم على الإيمان، حيث لم تمنعهم جراحهم عن الخروج للقتال، ولم يرهبهم قول من قال لهم بعد ذلك إن الناس قد جمعوا لكم، ولهذا تجلى عليهم فزادهم من نعمه وفضله وجوده؛ بسبب هذا الثبات على الإيمان.

والمعنى: الذين أجابوا داعي الله وأطاعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، فخرجوا للجهاد في سبيل الله بكل عزيمة وثبات، مع ما بهم من الجراح الشديدة، والآلام المبرحة. والمراد بهم المؤمنون الذين ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم أحد إلى حمراء الأسد(١)، مع ما بهم من الجراح والآلام.

وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد، وكروا راجعين إلى مكة، تندموا وهم في سيرهم لم لا تمَّمُوا على أهل المدينة. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، فخرج الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع قوم من أصحابه مع ما بهم من الجراح والآلام حتى بلغوا حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا(٢).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: للذين أحسنوا منهم واتقوا الله في كل أحوالهم، بأن أدوا جميع المأمورات، وصانوا أنفسهم عن جميع المنهيات، أجر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. قال الزمخشري: "و(من) في قوله تعالى

---

(١) حمراء الأسد: وهي مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة [معجم البلدان لياقوت الحموي: ٢/ ٣٠١]

(٢) يراجع: معالم التنزيل: ١/ ٥٤١، ٥٤٢، وزاد المسير: ١/ ٣٤٨، وتفسير ابن كثير: ٢/ ١٦٨– ١٧٠، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٢١.

﴿ مِنْهُمْ ﴾ للبيان؛ لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا واتقوا كلهم لا بعضهم"[1].

وبعد أن مدحهم الله ﷻ على حسن استجابتهم لله ولرسوله مدحهم سبحانه على ثباتهم على الإيمان، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

رُوي أنَّ أبا سفيانَ نادى عند انصرافِه من أحُد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام إن شاء الله تعالى، فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مرَّ الظهران[2]، فألقى الله تعالى في قلبه الرعب وبدا له أن يرجع، فمر به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للمِيرة، فشرط لهم حِملَ بعيرٍ من زبيب إن ثبّطوا المسلمين، وقيل: لقي نُعيمَ بنَ مسعودٍ وقد قدم معتمرا فسأله ذلك، والتزم له عشرا من الإبل، فخرج نُعيمٌ ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم: أتَوْكم في دياركم فلم يُفلت منكم أحد إلا شريد، أفترَوْن أن تخرجوا وقد جمعوا لكم، ففزُّوا، فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لأخرُجَنَّ ولو لم يخرج معي أحد، فخرج في سبعين راكبا، كلُّهم يقولون: حسبُنا الله ونعم الوكيل[3].

ومعنى الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني: الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نُعيم بن مسعود الأشجعي، وإطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم، أو لأنه انضم إليه ناسٌ من المدينة وأذاعوا كلامه[4]. ﴿ إِنَّ

(١) الكشاف: ١/ ٤٤١.

(٢) الظهران: واد قرب مكة، وعنده قرية يقال لها: مرّ، تضاف إلى هذا الوادي فيقال: مرّ الظهران. [معجم البلدان: ٤/ ٦٣]

(٣) يراجع: جامع البيان: ٧/ ٣٩٩، ٤١٥، ومعالم التنزيل: ١/ ٥٤١، ٥٤٢، وزاد المسير: ١/ ٣٤٨، ٣٤٩، والتفسير الكبير: ٩/ ٤٣١– ٤٣٣، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٢١.

(٤) الكشاف: ١/ ٤٤٢.

﴿ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ يعني: أبا سفيان ومن معه من المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة ليستأصلوكم، فاخشوهم ولا تخرجوا لقتالهم.

لكن هذا التخويف والترهيب لم يؤثر في أولئك المؤمنين الصادقين، بل زادهم إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم، وثباتا على ثباتهم، قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، وجعلهم يقولون للمرجفين بكل ثقة واطمئنان: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا الله أمر أعدائنا ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ أي: ونعم الوكيل خالقنا عز وجل، فهو الموكول إليه أمرنا ومصيرنا.

وبسبب هذا الثبات على الإيمان زادهم الله تعالى من نعمه وفضله وبرأهم من كل أذى ومكروه؛ فقال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ الفاء للتعقيب، وهو معطوف على مقدر دل عليه السياق، والتقدير: فخرجوا إليهم ووافَوا الموعد فعادوا ورجعوا ...، ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ التنوين والتنكير في (نعمة)، وفي (فضل) للتعظيم، والباء للملابسة أو المصاحبة، والفضل: الزيادة في العطاء والمنة، والمعنى: فرَجَعوا من مقصِدهم ملتبسين بنعمة وفضل عظيمين لا يعرف قدرهما ولا كنههما إلا الله تعالى(١).

وقد روي في المراد بالنعمة والفضل ههنا أقوال: أما النعمة، فقيل المراد بها: الأجر، وقيل: العافية والسلامة من عدوهم، وقيل: الإيمان والنصر، وقيل: منافع الدنيا. وأما الفضل، فقيل: الأجر، وقيل: هو ربحهم في التجارة، وقيل: هو ثواب الآخرة(٢).

قلت: الأَوْلى أن تحمل النعمة والفضل ههنا على العموم، فلا يخصصان بشيء؛ لأنه لا يوجد ما يخصصهما، كما أن في تخصيصهما بشيء من ذلك أو

(١) يراجع: البحر المحيط: ٣/ ٤٣٩، والدر المصون: ٣/ ٤٩٠، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٤.

(٢) يراجع: دلائل النبوة للبيهقي: جماع أبواب غزوة أحد، باب: خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد: ٣/ ٣١٨. وجامع البيان: ٧/ ٤١٤، ٤١٥، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/ ٤٩٠، وتفسير ابن أبي حاتم: ٣/ ٨١٩، والوسيط للواحدي: ١/ ٥٢٣، والكشاف: ١/ ٤٤٢، وزاد المسير: ١/ ٣٤٩، والتفسير الكبير: ٩/ ٤٣٤، وغيرها.

بذلك كله حجر على فضل الله تعالى، وقد ذكرهما عز وجل منكرين، وبأسلوب وسياق يفيدين التعظيم، فعلم من ذلك أنهما نعمة وفضل عظيمان لا يعلم كنههما إلا الله تعالى.

﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ أي: رجعوا منعمين مبرئين لم يصبهم أي أذى أو مكروه عند خروجهم وعودتهم. ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ﴾ في كل ما أتَوا من قول وفعل ﴿ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ أي: والله تعالى صاحب الفضل العظيم الذي لا يحده حصر، ولا يحصيه عد.

قال القرطبي: "قال علماؤنا: لما فوضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا. فرضاهم عنه، ورضي عنهم"(١).

وهكذا نرى أن الله تعالى أعطى أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم فزادهم من نعمه بسبب ثباتهم على الإيمان، فمنحهم أولا: النعمة العظيمة، وثانيا: الفضل الجزيل، وثالثا: السلامة من السوء، ورابعا: اتباع رضوان الله.

(٣) **قوله تعالى** على لسان سيدنا هود عليه السلام لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ٥٢].

– **وقوله تعالى** على لسان سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

والشاهد في الموضعين: أن الاستغفار فيهما بمعنى الإيمان، على ما قرره بعض أئمة المفسرين، وقد جعله الله تعالى سببا في زيادة النعم؛ إذ استغفار كل قوم بحسب أحوالهم، وقد كان المخاطبون في هذه الآيات كفارا، لا يفيدهم

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٨٢.

الاستغفار بمعناه الحقيقي شيئا(١)، ومن ثم كان أمرهم بالاستغفار أمرا بالإيمان باللَّه تعالى، فلم يرد سيدنا نوح ولا سيدنا هود عليهما السلام من أقوامهم أن يقولوا: (نستغفر الله) وهم باقون على الكفر، وإنما أرادا منهم: الإيمان بالله تعالى، وهو ما جاء مصرحا به في سياق كل موضع منهما، على ما يأتي بيانه.

– قال الطبري في تفسير آية سورة هود عليه السلام: "يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾، يقول: آمنوا بالله حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودًا صلى الله عليه وسلم إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة نوح: ٣: ٤]"(٢). ونحوه قال الثعلبي والبغوي(١). وقرره الماتريدي أيضا(٢).

---

(١) معلوم أن الاستغفار على حقيقته بالنسبة للمؤمنين يعد سببا من أسباب زيادة النعم، فمعنى هذه الآية ينسحب علينا نحن المؤمنين، ولذلك خرج سيدنا عمر رضي الله عنه يستسقي فما زاد على الاستغفار، أخرج الطبري عن الشعبي قال: خرج عمر بن الخطاب يستسقي، فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠ – ١٢] وقرأ الآية التي في سورة هود: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢] [يراجع: جامع البيان: ٣/ ٦٣٤].

والمجاديح: واحدها مجدح، والياء زائدة للإشباع، والمجدح: نجم من النجوم، وقيل هو ثلاثة كواكب كالأثافي؛ تشبيها بالمجدح الذي له ثلاث شعب، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولا بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر. [النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١/ ٢٤٣].

(٢) ومنهم الطبري في جامع البيان: ١٥/ ٣٥٨، والماتريدي في تأويلات أهل السنة، والكشف والبيان: ٥/ ١٧٤، والبغوي في معالم التنزيل: ٢/ ٤٥٢، ٤٥٣، والزمخشري في الكشاف:

– وقال الماتريدي في تفسير آية سورة نوح عليه السلام: "فالاستغفار طلب المغفرة بما ذكر من قوله عز وجل على لسان نوح عليه السلام في الآية السابقة: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ [نوح: ٣]؛ فيكون هذا منه أمرا لهم بإتيان الإيمان الذي هو سبب المغفرة، لا أمرًا بأن يقولوا: نستغفر الله؛ إذ استغفار كل قوم يرجع إلى أحوالهم، فإن كانوا كفرة، فهو إيمان باللَّه تعالى، وإن كانوا أصحاب ذنوب، فهو التوبة إلى اللَّه تعالى، وإن كانوا مخلصين فمما سلف من ذنوبهم، وهكذا"(٣).

وقد بيَّن الله تعالى ما أعده من نعم عظيمة لقوم سيدنا نوح وقوم سيدنا هود عليهما السلام إن هم آمنوا:

* قال تعالى مبينا نعمه على قوم سيدنا نوح عليه السلام إن آمنوا:

– ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾ هذا جواب الأمر، وفيه معنى المجازاة، أي: فإن استغفرتم يرسل المطر(٤) عليكم غزيراً متتابعاً، شديد الانسكاب، في وقت حاجتكم إليه.

– ﴿ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ أي: ويعطكم ربكم مع ما تقدم أموالا وبنين، فيكثرها عندكم، ويزيد فيما عندكم منها(٥).

– ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾ أي: ويرزقكم بساتين وحدائق فسيحة غناء، ذات أشجار وثمار.

٢/ ٤٠٢، والنسفي في مدارك التنزيل: ٢/ ٦٦، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: ١٢/ ٩٥، ٩٦.

(١) الكشف والبيان: ٥/ ١٧٤، ومعالم التنزيل: ٢/ ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٦/ ١٤٢، ١٤٣.

(٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي: ١٠/ ٢٢٥، ويراجع نفس المعنى في: ٣/ ٣٥٤، ٥/ ٤٩٣، ٨/ ٦٢٧، ٩/ ١٠٣، ١٠/ ٢٧٥.

(٤) السماء يراد بها المطر كما في قول معاوية بن مالك: [لسان العرب: ١٤/ ٣٩٩]

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

(٥) جامع البيان: ٢٣/ ٦٣٣.

- ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: ويمنحكم أنهارا جارية تسقون منها جناتكم ومزارعكم[١].

فانظر – أكرمك الله – إلى ما أعده الله تعالى لهم من النعم العظيمة والجليلة إن هم آمنوا بالله تعالى.

قال أبو السعود: "كأنهم تعللوا وقالوا: إن كنا على الحق فكيف نتركه؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا؟ فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من الكفر والمعاصي ويجلب إليهم المنافع، وهو الإيمان، ووعدهم عليه بما هو أوقع في قلوبهم وأحب إليهم. وقيل: لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القِطْر، وأعقم أرحام نسائهم؛ فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه"[٢].

وقال الشوكاني: "أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا"[٣].

* وقال تعالى مبينا نعمه على قوم سيدنا هود عليه السلام إن آمنوا:

- ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ هذا جواب الأمر، وفيه معنى المجازاة، والمعنى: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل عليكم قَطْر السماء غزيراً متتابعاً في وقت حاجتكم إليه، فتحَيَا به بلادكم من الجدب والقَحط[٤]. والماء هو قوام الحياة للبشر والحيوان والنبات، وتوفره نعمة عظيمة لا يعرفها إلا من فقدها.

---

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٦٣٤.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٩/ ٣٨.
(٣) فتح القدير: ٥/ ٣٥٧.
(٤) جامع البيان: ١٥/ ٣٥٨.

- ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ أي: ويزدكم مع ما تقدم قوة مادية ومعنوية، في كل شيء، وفي جميع المناحي؛ إذ الراجح في القوة هنا أنها عامة شاملة لجميع ما يحسن الله تعالى فيه إلى العباد(١).

وواضح من خلال ما سبق أن الله تعالى جعل الاستغفار الذي هو بمعنى الإيمان سببا في زيادة النعم. ولما كان الأمر كذلك دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه ﷻ أن يغدق نعمه على من آمن بالله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ١٨٠.
وقيل: المراد: شدة إلى شدتكم، وقيل: خصباً إلى خصبكم، وقيل: عزاً إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم، وقيل: إنه ولد الولد، وقيل: ويزدكم قوة في إيمانكم إلى قوتكم في أبدانكم. [يراجع: جامع البيان للطبري: ١٥/ ٣٥٨، والنكت والعيون للماوردي: ٢/ ٤٧٧]. والراجح: العموم كما أوضحت.

المطلب الثاني

السبب الثاني: القيام بشكر الله تعالي

لقد جعل الله تعالى الشكر سببا في زيادة النعم؛ حيث قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]. والمعنى: وإذ أعلمكم ربكم، أو وإذ أقسم ربكم بوعده لكم لئن شكرتم لأزيدنكم، أي: من نعمي(١).

وهذا نص صريح في أن الشكر سبب في زيادة النعم، قال القرطبي: "والآية نص في أن الشكر سبب المزيد"(٢).

والزيادة هنا زيادة عامة غير مخصصة، فهي تشمل والله أعلم: زيادة النعم في الدنيا، وزيادتها في الآخرة، كما تشمل: زيادة النعم الموجودة، وزيادة نعم جديدة لم تكن.

*** وللقيام بواجب شكر الله تعالى على نعمه مقدمة ضرورية لابد منها، وهي:**

طلب العون من الله تعالى للقيام بواجب الشكر:

وذلك لأن العبد ضعيف لا يقوى على شكر العظيم سبحانه، فقير لا يقدر على شكر الغني عز وجل؛ ولأنه لا حول للإنسان ولا قوة إلا بالله، فلولا معونته تعالى وتوفيقه ما كان من الإنسان شيء، ولذلك أرشد الله تعالى الخلق إلى طلب العون منه سبحانه للقيام بهذا الواجب العظيم.

– قال الله تعالى معلما الخلق طلب العون منه سبحانه للقيام بواجب الشكر: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ٤٠٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٤٧٩. ونظم الدرر للبقاعي: ٤/ ١٧٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٤٣.

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

– وهذا نبي الله سليمان عليه السلام، يتضرع إلى الله عز وجل ويطلب منه العون للقيام بشكره سبحانه؛ قال الله تعالى على لسانه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

والشاهد في الآيتين: قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ومعناه: رب ألهمني وأَغْرِني ووفقني وحرضْني على أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ. وأصله من وزعت الرجل على كذا: إذا دفعته عليه[1].

*** ولكي يقوم المؤمن بواجب الشكر على الوجه الكامل، ويكون آخذا بسبب من أسباب زيادة النعم، يجب عليه أن يأتي بجميع أركان الشكر التي تضمنها كتاب الله تعالى،** وهي: شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر الجوارح، وهذه الأركان متصلة كالحلقة الواحدة، فلا يتم شكر الله عز وجل على نعمه حتى يتحقق بها جميعا. وفيما يأتي بيان موجز لتلك الأركان في ضوء القرآن الكريم:

*** الأركان التي يقوم عليها الشكر:**

أولا: الشكر بالقلب:

والشكر بالقلب يكون من جانبين متكاملين: الأول: بالتفكر في نعم الله تعالى وآلائه، والثاني: بشهود مشهد التقصير في شكر الله على نعمه.

---

(١) جامع البيان: ١٩/ ٤٤٠، و٢٢/ ١١٤، ١١٥، ومعاني القرآن للفراء: ٢/ ٢٨٩، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ١١٢، ١١٣، والوسيط للواحدي: ٤/ ١٠٧، والكشاف: ٣/ ٣٥٧، وتفسير ابن كثير: ٦/ ١٨٣، والدر المصون: ٨/ ٥٨٢، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٣١.

أما الجانب الأول: وهو التفكر في نعم الله تعالى وآلائه:

فهو يعني استحضارها والتدبر فيها، وذلك لا يكون إلا بالقلب، وبه يدرك المؤمن يقينا أن الله تعالى ولي كل النعم دقيقها وجليلها على كل الخلق، ويعلم عظمة هذه النعم وكثرتها بحيث لا يستطيع الخلق حصرها، ويعلم افتقاره وحاجته إليها؛ فيتوصل من ذلك كله إلى وجوب شكر الله تعالى؛ فيذعن ويقر بقلبه بنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة عليه وعلى الناس. وهذا هو شكر القلب.

وقد أمرنا الله تعالى بالتفكر في نعمه في آيات كثيرة، وبصيغ متعددة – والأمر للوجوب؛ حيث لم يوجد ما يصرفه عن ذلك –، فمرة بالحث على التفكر، ومرة بالحث على التعقل، ومرة بالحث على التذكر، ومرة بالحث على السمع – الذي يعني التدبر والتفكر –، وهذه المعاني جميعا لا تتم إلا بالقلب. **ومن هذه الآيات الكريمة:**

– **قوله تعالى:** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

– **وقوله تعالى:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠ – ١٣].

– **وقوله تعالى:** ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل: ٦٥].وغير ذلك من الآيات الكثير.

وهذه المعاني من التفكر والتعقل والتذكر هي التي ينبني عليها اعتقاد جازم ويقين في القلب بنعم الله تعالى، ويكون ذلك أساسا للشكر باللسان وبالجوارح،

فلا يتم الشكر بهما حتى يوجد ذلك اليقين في القلب، فإن وُجِد ترجمه اللسان أقوالا، وطبقته الجوارح أعمالا، وإلا فلا.

ولذلك أقول جازما: لقد أمرنا الله تعالى أن نشكره بقلوبنا حين أمرنا بالتفكر في آلائه ونعمه.

وأما الجانب الثاني: وهو شهود مشهد التقصير في شكر الله على نعمه:

فمعناه: أن يتلقى العبد نعم الله عليه بحال التواضع والفقر والفاقة إليها، وأن ينظر إلى نعم الله عليه بعين التعظيم، وإلى شكره مهما بلغ بعين الاستصغار والاستحقار، وذلك لا يتم إلا بالقلب.

وقد ذكر الله تعالى هذه الحال عن سيدنا موسى عليه السلام، وبيَّن ما أفاضه عليه من النعم بسبب ذلك؛ حيث قال: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص: ٢٣ – ٢٥].

والشاهد: قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قال الطاهر بن عاشور: "لما استراح موسى عليه السلام من مشقة السقي لماشية المرأتين والاقتحام بها في عدد الرعاء العديد، ووجد برد الظل تذكر بهذه النعمة نعما سابقة أسداها الله إليه، من تربيته الكاملة في بذخة الملك وعزته، وحفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التي رُبِّيَ فيها، فكان منتفعا بمنافعها مجنبا رذائلها وأضرارها، ومن نجاته من القتل، وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، ومن جعل نصر قومه على يده، ومن نجاته من القتل الثاني ظلما، ومن إيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة، بعد أن قطع فيافي ومفازات... تذكر جميع ذلك وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب، فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء، وهي: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

﴿٢٤﴾﴾. قال هذه الجملة شكرا لله على نعم سلفت، وثناء عليه بأنه المعطي الوهاب"[1].

وفي هذه الجملة القرآنية الكريمة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ثلاثة أدلة على شهود سيدنا موسى عليه السلام مشهد التقصير في شكر الله تعالى على نعمه: الأول: تعظيمه لنعم الله تعالى عليه، يشير إلى ذلك قوله: ﴿خَيْرٍ﴾ فهو يشمل خيري الدنيا والآخرة، والثاني: قوله: ﴿أَنزَلْتَ﴾ فهو يدل على شرف ورفعة هذه النعم. والثالث: قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ إذ فيه إظهار لتواضعه وفاقته وحاجته إلى تلك النعم، واستصغار شكره تجاهها. وهذه المعاني كلها نابعة من القلب.

وقد جعل الله تعالى هذا الموقف الإيماني من سيدنا موسى عليه السلام سببا في حفظ نعمه عليه وزيادتها له؛ حيث أنعم عليه مباشرة بخير عظيم – كما أشعرت بذلك فاء التعقيب –؛ فقال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فأكرمه الله تعالى مباشرة، وأفاض عليه من نعمه لقاء شكره له، والذي تحلى بهذا القدر العظيم من الأدب والتواضع، فآواه وجعل له بيتا وزوجة.

فإذا تم شكر الله تعالى بالقلب اعتقادا واعترافا وإذعانا ترجمه اللسان أقوالا، وهو الآتي بيانه:

ثانيا: الشكر باللسان :

لقد أمرنا الله تعالى في كتابه الكريم بشكره بألسنتنا، والأمر للوجوب؛ حيث لم يوجد ما يصرفه عنه. والشكر باللسان يعني الاعتراف قولا بنعم الله تعالى، والثناء عليه عز وجل بها، بأنه الكريم المعطي الوهاب، ونحو ذلك، ومن الآيات الدالة على ذلك:

– **قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

(١) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٠٢. بتلخيص وتصرف.

فهذه الآية الكريمة نص في وجوب شكر الله على نعمه باللسان. والتحديث: الإخبار، أي: أخبر بما أنعم الله عليك اعترافا بفضله(١). أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم(٢). والخطاب له صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره(٣). والمعنى: فاشكر، وصرِّح بإحسان الله تعالى إليك، وإنعامه عليك(٤).

وقد خص بعضهم النعمة هنا(٥)، والصحيح: أنها عامة، تشمل كل نعم الله تعالى علي النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته(٦)، فيجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على سائر نعم الله عليه بلسانه.

* وقد ورد الأمر بذكر نعم الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومعناه: مقابلتها بالشكر، إقرارا بالقلب، وترجمة باللسان، وعملا بالجوارح(٧)، **فهو إذًا مشتمل على الشكر باللسان**. ومن هذه الآيات:

– **وقوله تعالى:** ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

– **وقوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣]. وغير ذلك من الآيات الكريمة.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٣.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٧١، وفتح القدير: ٥/ ٥٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٠٢.

(٤) لطائف الإشارات للقشيري: ٣/ ٧٤٢.

(٥) روي عن مجاهد: أنها النبوة، وعنه أيضا: أنها القرآن.[يراجع: جامع البيان: ٢٤/ ٤٨٩، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٠/ ٣٤٤٤]

(٦) يراجع: مدارك التنزيل: ٣/ ٦٥٥، والتسهيل: ٢/ ٤٩١، وإرشاد العقل السليم: ٩/ ١٧١، وفتح القدير: ٥/ ٥٥٩.

(٧) غرائب القرآن: ١/ ٦٣٦.

والشاهد في هذين الموضعين: أن الله تعالى أمر فيها بذكر نعمه، والمراد من هذا الذكر هو الشكر؛ لاستدامة النعم وطلب المزيد منها(١)، وهذا الشكر يشمل شكر القلب واللسان والجوارح، ومن ثم فشكر اللسان مأمور به هنا، ومقصود من هذا الأمر، وهذا هو الشاهد.

ثالثا: الشكر بالجوارح:

والشكر بالجوارح يكون باستعمالها في طاعة الله تعالى، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وهذه الجملة القرآنية الكريمة نص في وجوب شكر الله تعالى بالجوارح؛ لأن العمل لا يكون إلا بها، وهي وإن كانت في سيدنا داود عليه السلام وآله إلا أننا مخاطبون بها، لكوننا مخاطبون بكل حرف في كتاب الله تعالى.

وهي مقول قول محذوف، أي قلنا: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عمكم بها مع سائر خلقه(٢).

وقوله تعالى: ﴿شُكْرًا﴾ مفعول به، والمعنى: اعملوا الطاعة، أو اعملوا عملا هو الشكر، أو: مصدر من معنى اعملوا، كأنه قيل: اشكروا شكرا بعملكم، أو اعملوا عملَ شكر(٣).

وهكذا: جعل الله تعالى الشكر سببا في زيادة النعم، ولكي يقوم المؤمن بالشكر على الوجه الكامل يجب عليه أن يجمع في شكره بين شكر القلب إذعانا وإقرارا، وشكر اللسان قولا واعترافا، وشكر الجوارح عملا وانقيادا، فلا يغني أحدهما عن الآخر إلا إذا كان عاجزا عن ذلك. ومن جمع بين هذه الأركان

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٢١، وفتح القدير: ٤/ ٣٨٨.
(٢) جامع البيان: ٢٠/ ٣٦٨. بتصرف يسير.
(٣) الكشاف: ٣/ ٥٧٣، والبحر المحيط: ٨/ ٥٢٩، والدر المصون: ٩/ ١٦٣.

الثلاثة للشكر كان آخذا بسبب من أسباب زيادة النعم، وهو شكر الله تعالى على نعمه.

تتمة:

يجب على المؤمن أن يأخذ بأسباب زيادة النعم، ويعلم أن الله تعالى لا يجب عليه شيء، لا إثابة الطائع، ولا عقاب العاصي، وهو عز وجل يفعل ما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وقيام العبد بالشكر إنما هو قيام بما أوجبه الله تعالى عليه عبادة له سبحانه، ولا يستوجب بذلك على الله تعالى شيئا، فإن زاده الله تعالى فبمحض فضله، وإن منعه فبمحض عدله، لا يسأل عما يفعل، تقدست ذاته، وعز جاهه وسلطانه، سبحانه وتعالى.

*****

المبحث الثاني

أسباب زوال النعم

في ضوء القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **السبب الأول**: **الكفر بالله تعالي**.

المطلب الثاني: **السبب الثاني**: **كفران النعم**.

المبحث الثاني

أسباب زوال النعم في ضوء القرآن الكريم

تمهيد:

المراد بزوال النعم:

الزَّوَال في اللغة: الذَّهاب والاسْتِحالة والاضْمِحْلال، يقال: زَالَ يَزُول زَوَالًا وزَوِيلًا وزُؤُولًا. وزَالَ الشيءُ عَنْ مَكَانِهِ يَزُول زَوَالًا، وزَالَ القومُ عَنْ مَكَانِهِمْ إِذا حَاصُوا عَنْهُ وتَنَحَّوْا. ويُقَالُ: أَزَالَه عَنْ مَكَانِهِ يُزِيله، والزَّوَائل: النُّجُومُ لِزَوَالِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلى الْمَغْرِبِ فِي اسْتِدَارَتِهَا، والزَّوَال: زَوالُ الشَّمْسِ وزَوالُ المُلْكِ ونحوِ ذَلِكَ مِمَّا يَزُول عَنْ حَالِهِ(١).

وعليه: فإن إزالة الله تعالى للنعم تعني: محقها ومحوها، لكن قد يزيل الله تعالى النعمة تماما، وقد يُبْقِى منها شيئا قليلا؛ ليكون أثرا شاهدا على نعم الله، كلما رآه من سلبت منهم النعم ازدادت حسراتهم وتجددت آلامهم، فيكون في ذلك عقابا مستمرا(٢).

قال أبو حيان: "وتغيير النعمة قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد يُذْهب الله تعالى النعمة رأساً، وقد يقللها ويضعفها"(٣).

وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم ليلاحظ أن الله عز وجل كما شرع لنا أسبابا نأخذ بها لزيادة النعم، فقد ذكر أسبابا أخرى ممنوعة شرعا، نتوقاها لئلا تزول النعم، وفي ذلك من عظيم فضل الله تعالى علينا ما لا يخفى؛ حيث بيَّن

---

(١) لسان العرب: ١١/ ٣١٣- ٣١٥، ومختار الصحاح: ص١٣٩، والمصباح المنير: ص٢٦٠. مادة (زول).

(٢) وذلك كما في قصة أهل سبأ الآتي تناولها إن شاء الله تعالى.

(٣) البحر المحيط: ٥/ ٣٣٧، بتصرف.

لنا طريق الخير وطريق الشر بما ليس وراءه بيان أو تفصيل، كما أن فيه دلالة على عظم هذه القضية ومنزلتها.

فإذا قارف الإنسان واحدا أو أكثر من أسباب زوال النعم كان معرضا لزوالها عنه، لكن أمره موكول إلى الله تعالى، يفعل ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فلا يجب على الله تعالى شيء، لا إثابة الطائع ولا عقاب العاصي، فإن شاء أزال نعمه عنه، وإن شاء تركه متمتعا بها إمهالا له واستدراجا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

ويمكن تقسيم أسباب زوال النعم كما وردت في القرآن الكريم إلى سببين رئيسين:

السبب الأول: الكفر بالله تعالى.
والسبب الثاني: كفران النعم، ويندرج تحته أسباب فرعية، وهي إجمالا:
أولا: نسبة حدوث النعم لغير الله تعالى.
ثانيا: الإعراض عن شكر النعم.
ثالثا: بَطَرُ النعم.
رابعا: التجبر بالنعم.
خامسا: التكبر بالنعم.
سادسا: عدم أداء حق الله تعالى فيها.
سابعا: كثرة المعاصي.
ثامنا: استخدامها في معصية الله.

وهذا بيان وتفصيل لتلك الأسباب في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

السبب الأول: الكفر بالله تعالي

الكفر بالله تعالى سبب في خسران كل نعيم في الآخرة، ومحق كل خير في الدنيا، بل إنه سبب لخراب العالم؛ قال تعالى في كفر النصارى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٨٨– ٩٢].

ومهما عاش الكافر وتقلب في نعم الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار فهو ظاهرا في نعم، وباطنا في نقم، لأنه مستدرج للهاوية، وبسبب كفره تتحول نعم الله عليه في الدنيا إلى نقم، ويُحرم كل خير في الآخرة.

* وقد نص الله تعالى في كتابه الكريم على أن الكفر به عز وجل سبب في زوال النعم؛ حيث ذكر أقواما كفروا به تعالى وجحدوا نعمه، فأزال نعمه عنهم وأهلكهم، وأذكر نموذجا واحدا من هؤلاء خشية الإطالة:

– ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام:

وهؤلاء ردت قصتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم(١)، وسأذكر إن شاء الله تعالى من الآيات ما يتصل بموضوعنا هنا. فأذكر إجمالا: نعم الله عليهم، ثم موقفهم من تلك النعم، ثم عقاب الله ﷻ لهم.

* **أما نعم الله تعالى عليهم:** فكانت كثيرة وعظيمة:

وعلى رأسها: إرسال نبيه صالحا عليه السلام إليهم، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ليفوزوا بالفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة، وقد مَنَّ الله عليهم بأن جعله منهم نسبا، ليكونوا أعرف الناس بصدقه وأمانته، وأفهم لكلامه، وأقرب لاتباعه؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. [الأعراف: ٧٣].

---

(١) وردت في السور الكريمة الآتية: سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، وفصلت، والذاريات، والقمر، والحاقة، والشمس، وغيرها.

ومنها أيضا: أن الله تعالى جعلهم خلفاء في الأرض من بعد عاد قوم هود عليه السلام، أي: جعل فيهم الرياسة والقيادة؛ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

ومنها أيضا: أن الله تعالى أطال أعمارهم؛ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ومعنى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أطال أعماركم؛ قاله الضحاك، وقيل: أعمركم فيها، أي: جعلكم ساكنيها مدة أعماركم؛ قاله مجاهد. وقيل: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها؛ قاله علي بن عيسى(١).

ومنها أيضا: أن الله تعالى مكَّنهم في الأرض، وجعلهم في عز ورفاهية؛ قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]. ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: مكَّنكم(٢)، فكانوا يشيدون في السهول قصورا عالية وأبنية حصينة، وينحتون الجبال فيتخذون منها بيوتا، قيل: كانوا يسكنون القصور في الصيف، والجبال في الشتاء(٣).

ومنها أيضا: أنه عز وجل مَنَّ عليهم برغد العيش وسعة الرزق؛ قال تعالى على لسان صالح لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ – ١٤٨]. والهضيم: اللين النضيج الذي تداخل بعضه في بعض كأنما شُدِخ(٤). ففي هذه الآيات الكريمة دليل على أن الله تعالى فتح لهم أبواب الخيرات ووسع أرزاقهم حتى كانت بلادهم جنات وعيونا وزروعا، يتنعمون فيها بشتى صنوف الخيرات.

---

(١) الآثار: أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره: ٢/ ٤٧٩، وذكرها الماوردي في النكت والعيون: ٤٧٩/٢، وابن الجوزي في زاد المسير: ٢/ ٣٨٢.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/ ٤٢٢.

(٣) النكت والعيون: ٢/ ٢٣٦، ومعالم التنزيل: ٢/ ٢٠٧.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٣١٩، والمفردات للراغب: ص٨٤٢.

وقد أجمل لهم نبيهم صالح عليه السلام نعم الله عليهم بعد أن ذكر بعضها مفصلا، لزيادة التأكيد والتقرير، فقال: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤]، أي: فاذكروا نعم الله التي أنعم بها عليكم، والتي من جملتها ما ذكر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها، فكيف بالكفر والعثي في الأرض بالفساد؟![1].

*** وأما موقفهم من هذه النعم:**

فكان الجحود والإنكار؛ **أولا:** كذبوا نبيهم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر: ٢٣ – ٣١].

ثانيا: خالفوا أمر نبيهم عليه السلام وعقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية، لها شرب يوم ولهم شرب يوم معلوم؛ قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١١– ١٤]، وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ونسب الله التكذيب والعقر إلى جميعهم مع أن قاتلها واحد؛ لأنهم كانوا راضين بذلك مجمعين عليه[2].

ثالثا: استعجلوا العذاب الذي كان سيدنا صالح يتوعدهم به؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وفي ذلك من العتو ما فيه.

*** وأما عقاب الله عز وجل لهم:**

---

(١) يراجع: فتح القدير: ٢/ ٢٥١.

(٢) يراجع: جامع البيان: ٢٤/ ٤٦٠، بتصرف وتلخيص.

فكان عاجلا في الدنيا، لقد أنزل الله تعالى بهم عقابه الأليم جزاء كفرهم، فأهلكهم وقطع دابرهم، فزالوا وزالت النعم التي كانت تغمرهم، ويعيشون في ظلالها؛ قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والمعنى: فأخذتهم الزلزلة الشديدة[١] فأصبحوا في بلدهم[٢] جاثمين خامدين، سقوطا صرعى، بعضهم على بعض، موتى لا يتحركون؛ لأنهم لا أرواح فيهم، قد هلكوا[٣].

وقد ذكر الله تعالى في آية أخرى أنهم أخذوا بالصيحة؛ قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود: ٦٧]. وذكر تعالى في آية أخرى أنهم أخذوا بالصاعقة؛ قال تعالى: ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٤]، ولا تعارض بين هذه الآيات الكريمة، فيجوز أن يكونوا قد أُخذوا برجفة صاحبتها صيحة وصاعقة، وفي هذا ما يدل على شدة وعظم عذاب الله الذي نزل بهم، والله تعالى أعلم.

وهكذا كان الكفر بالله تعالى سببا في زوال النعم، بل سببا في الهلاك، والعياذ بالله تعالى، وشواهد ذلك في القرآن الكريم كثيرة.

** ولأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، لا إثابة الطائع ولا عقاب العاصي؛ فقد يترك الكافر متمتعا بنعمه عز وجل ولا يزيلها عنه ولا يهلكه، رغم مقارفته لأهم أسباب زوال النعم، ويكون ذلك إمهالا له واستدراجا.

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ٣٨٤، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٣٥١، والمحرر الوجيز: ٢/ ٤٢٩، والتفسير الكبير: ١٤/ ٣٠٧.

(٢) ولذلك وحد الدار، كما يقال: دار الحرب، وجمع في آية أخرى فقال: (في ديارهم) [هود: ٩٤]؛ لأنه أراد بالدار ما لكل واحد منهم من منزله الخاص به. [جامع البيان: ٢١/ ٥٤٦]

(٣) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٢/ ٥٤٦، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٣٥١، ومعاني القرآن للنحاس: ٣/ ٤٩، ٣/ ٣٧٧، والوسيط للواحدي: ٢/ ٣٨٤.

وحتى لا يغتر الكافر بذلك بيَّن الله تعالى أنه مهما تنعم الكافر في الدنيا فنعيمه قليل مهما بلغ، وزائل مهما استمر، وأنه يعقبه عذاب النار وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]،

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٠]. وغير ذلك من الآيات الكريمة.

*****

المطلب الثاني

السبب الثاني: كفران النعم

والكفران في اللغة: مأخوذ من الكُفر، وأَصل الكُفر: تغطية الشيء وستره، والكُفْرُ: ضد الإيمان، وكل من ستر شيئاً وأخفاه فقد كَفَرَه، والكفران: جحود النِّعْمَة، وهو ضدّ الشُّكر(١). قال الراغب: "والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعا، قال تعالى في بيان الكفران: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]"(٢).

وأما كفران النعم في الاصطلاح: فقال الجرجاني: "هو: ستر نعمة المنعم بالجحود أو بعمل هو كالجحود في مخالفة المنعم".(٣)، وقال المناوي: "هو: نسيان النعمة وسترها"(٤).

وبناء على ما تقدم يمكن تعريف كفران النعم بأنه: (إخفاء نعم الله تعالى، جحودا بالقلب، أو إنكارا باللسان، أو عصيانا بالجوارح، أو بها جميعا).

ويندرج تحت هذا السبب الرئيس (كفران النعم) أسباب فرعية، هي بمثابة الصور المتعددة لكفران النعم، بعضها يقع من الكافرين، وبعضها يقع من عصاة المؤمنين، وبعضها يقع من الفريقين، وها هي:

أولا: نسبة حدوث النعم لغير الله تعالى:

نسبة النعم إلى غير الله تعالى إما أن تكون إلى النفس أو إلى الغير، ولا يخلو ذلك من أحد وجوه ثلاثة:

---

(١) لسان العرب: ٥/ ١٤٤، وتاج العروس للزبيدي: ١٤/ ٥٢، ومختار الصحاح للرازي: ١/ ٥٨٦، مادة (كفر).

(٢) المفردات للراغب: ص٤٣٤.

(٣) التعريفات للجرجاني: ص٢٣٧.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ص٤٣٥.

الأول: أن تنسب النعمة إلى غير الله تعالى على سبيل الحقيقة إيجادا أو خلقا: وهذا لا شك في كونه كفر بالله تعالى، وعليه قوله تعالى حكاية عن الإنسان الجاحد: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت: ٥٠]، فقوله: ﴿ هَذَا لِي ﴾ أي: حصلت على هذا بعلمي، وأنا محقوق به، لا أنه تفضل من الله ونعمة(١).

وعليه أيضا قوله تعالى حكاية عن قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] أي: حصلت على هذه الكنوز بحولي وقوتي، بسبب حذقي ومعرفتي بوجوه المكاسب، لا أنها تفضل من الله تعالى(٢).

والثاني: أن تنسب النعمة إلى غير الله تعالى على سبيل الحقيقة أيضا، لكن لا على سبيل الإيجاد أو الخلق، وإنما على سبيل التأثير من هذا السبب الذي نسبت إليه: وهذا شرك بالله تعالى، وعليه قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل: ٨٣]، والمعنى: يعرفون أن النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم، ولكنهم ينكرون ذلك؛ روي أنهم

(١) معاني القرآن للزجاج: ٤/ ٣٩١، والوسيط للواحدي: ٤/ ٤٠، ومعالم التنزيل: ٧/ ١٧٨، والكشاف: ٤/ ٢٠٥، والمحرر الوجيز: ٢٢/٥، والتفسير الكبير: ٢٧/ ٥٧٢، والجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٧٣، والبحر المحيط: ٩/ ٣١٦. وغيرها.

(٢) معاني القرآن للفراء: ٢/ ٣١١، والوسيط للواحدي: ٣/ ٤٠٨، ومعالم التنزيل: ٦/ ٢٢٢، والكشاف: ٣/ ٤٣١، والمحرر الوجيز: ٣٠٠/٤، وزاد المسير: ٣/ ٣٩٣، والبحر المحيط: ٨/ ٣٢٦، وروح المعاني: ١٠/ ٣١٩، وفتح القدير: ٤/ ٢١٥، وغيرها.

كانوا يقولون: هذا ورثناه عن آبائنا[١]، وروي أنهم كانوا يقولون: لولا فلان لم يكن كذا وكذا[٢]، وروي أنهم كانوا يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا[٣].

وفي التعبير بـ (ثم) الدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر[٤].

والثالث: أن تنسب النعمة إلى غير الله تعالى على سبيل الحكاية فقط؛ على أن هذا الغير سبب فحسب، مع الاعتقاد الجازم بأن المنعم هو الله تعالى، وأن الخلق جميعا ما هم إلا أسباب جعل الله تعالى النعم على أيديهم: فهذا جائز ولا شيء فيه، وقد نسب الله تعالى النعمة إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في معرض قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ حيث قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ** ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والمعنى باتفاق جميع المفسرين: وإذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه: أمسك عليك زوجك واتق الله[٥].

ولا ريب أن المنعم بالعتق على زيد بن حارثة في الحقيقة هو الله تعالى، وما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سبب في هذا الإنعام، أجرى الله تعالى النعمة على يديه.

---

(١) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٧/ ٢٧٣، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ٢/ ٥٧٧. عن مجاهد.

(٢) المصدران السابقان: نفس الموضعين. عن عون بن عبد الله.

(٣) المصدران السابقان: نفس الموضعين. عن الكلبي، وقاله الفراء وابن قتيبة.

(٤) التفسير الكبير: ٢٠/ ٧٦.

(٥) يراجع: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٨٨، والبحر المحيط: ٧/ ٢٢٦، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٠٥، وفتح القدير: ٤/ ٤٠٤، وغيرها.

ولذلك لا يجوز أن تنسب النعمة لغير الله تعالى إلا من هذا الباب، مع الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو المنعم أولا وآخرا، فهو سبحانه الذي خلق النعم، ومن أنعم بها، وداعية الإنعام في قلب من أنعم بها، وما الخلق إلا أسباب أوصل الله تعالى النعم عن طريقهم. ومن هنا أوجب الله تعالى علينا شكره، وشكر من أجرى لنا الخير على أيديهم. والله تعالى أعلم.

ومن خلال ما سبق يتبين أن الوجهين الأول والثاني هما فقط اللذين يكونان سببا في زوال النعم؛ لأن فيهما تنسب النعم إلى غير الله تعالى على سبيل الحقيقة، والعياذ بالله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم نماذج لأولئك الذين ينسبون نعمه عز وجل إلى غيره، وبيَّن أن ذلك كان سببا في زوال النعم عنهم، ومن هؤلاء:

١ – قـــارون:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٧٦ – ٨١] .

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة ثلاثة أسباب من أسباب زوال النعم، في قصة رجل من بني إسرائيل من قوم سيدنا موسى عليه السلام، اسمه (قارون)، أنعم الله عز وجل عليه بنعمة الغنى والثراء، فبلغ ماله من الكثرة بحيث إن مفاتيح خزائنه – أو خزائن أمواله – يثقل حملها على العصبة من الرجال

أولي القوة؛ لكنه كفر بهذه النعمة العظيمة؛ وكان لكفرانه بنعمة الله عليه ثلاثة مظاهر، كل واحد منها يعد سببا من أسباب زوال النعم، وهي:

الأول: بغيه على قومه بنعمة الله عليه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

والثاني: نسبته نعمة الله عليه إلى ذاته، وزعمه أنه حصل عليها بحوله وقوته دون فضل الله تعالى وإحسانه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

والثالث: تكبره بنعمة الله تعالى: وإليه يشير قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

والشاهد في هذا الموضع: هو المظهر الثاني، وهو نسبته نعمة الله عليه إلى ذاته، وزعمه أنه حصل عليها بحوله وقوته دون فضل الله تعالى وإحسانه؛ فكان ذلك سببا في أن أزالها الله تعالى عنه وأهلكه.

وفيما يأتي بيان لنعم الله عليه، وموقفه منها، وعقاب الله عز وجل له. وإتماما للفائدة أتناول إجمالا المظاهر الثلاثة لكفره وجحوده، وبالله تعالى التوفيق:

*** أما نعم الله تعالى عليه:**

فيصورها قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

والكنوز: جمع كنز، وهو مختزن المال من صندوق أو خزانة، والمفاتح: جمع مِفْتَح بالكسر، وهو ما يُفتح به الباب، وقيل: المراد بالمفاتح: الخزائن،

فيكون واحدها مَفتح بفتح الميم[1]، وهو اختيار الزجاج، حيث قال: "الأشبه في التفسير أن مفاتحه: خزائنه وأنها خزائن المال"[2].

﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أي: لَيثقلهم حملها، أو لَتميلهم من ثقلها، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به متثاقلاً، وأناءه الحمل: أي أثقله وأماله[3]. والمراد بالعصبة: الجماعة المتعصبة المتعاضدة من الرجال، ما بين العشرة إلى الأربعين[4].

والمعنى: وآتينا قارون بقدرتنا وفضلنا من الأموال الكثيرة ما يثقل حمل مفاتح خزائنها – أو خزائنها – على الجماعة المتعاضدة من الرجال الأقوياء.

وأفاد الزمخشري: أن مما يدل على كثرة وفيض ما منحه الله تعالى من الأموال: ذكر لفظ (الكنوز)، و(المفاتح)، و(النوء)، و(العصبة)، و(أولي القوة)[5].

*** وأما موقفه من نعم الله تعالى عليه:**

فقد كان الكفر والجحود، مع كثرة نصح قومه وإرشادهم له بشتى أنواع النصح والإرشاد، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وكان لذلك الكفر والجحود ثلاثة مظاهر:

المظهر الأول: بغيه على قومه: ويصوره قول الله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) المفردات: ص٣٧١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ١٥٥.

(٣) الصحاح للجوهري: ١/ ٧٨، ومعاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٨٢، معاني القرآن للنحاس: ٥/ ١٩٩.

(٤) المفردات: ص٣٣٦، ولسان العرب: ١/ ٦٠٢، مادة (عصب).

(٥) أفاده الزمخشري في الكشاف: ٣/ ٤٣٤.

والبغي: يطلق في اللغة على معان كثيرة، منها: مجاوزة الحد، والظلم، والاعتداء، والتسلط، والإفساد، والاستطالة، والترفُّع، والتعالي[1].

ولم يذكر الله تعالى في أي شيء كان بغي قارون على قومه ولا كيف؛ ولعل ذلك للإشارة إلى شدة بغيه وكثرته، ومن ثم كانت المعاني السابقة كلها جائزة في حقه: **ويكون المعنى:** فتطاول وترفَّع على قومه، وجاوز الحد في ظلمهم والتسلط والاعتداء عليهم. وسياق الآيات ظاهر في أن بغيه على قومه كان بنعمة الله تعالى عليه!!!.

وقدم الله تعالى وصف قارون بالبغي بنعمته تعالى قبل أن يذكر عز وجل نعمته عليه؛ حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾، ولعل السر في ذلك: التنبيه من أول الأمر على شدة كفرانه بنعمة الله تعالى، حتى صار ذلك وصفا ملازما له كوصفه بأنه كان من قوم موسى.

والمظهر الثاني: نسبته نعم الله عليه إلى ذاته:

ويصوره قول الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وهذا هو شاهد الاستدلال بقصة قارون في هذا الموضع، وهو نسبته نعمة الله عليه إلى ذاته، وزعمه أنه حصل عليها بحوله وقوته دون فضل الله تعالى وإحسانه.

---

(١) غريب القرآن للسجستاني: ص١٢٦، والمصباح المنير: ١/ ٥٧، ومختار الصحاح للرازي: ص٢٤، والمعجم الوسيط: ١/ ٦٤، والمفردات: ص٥٦، مادة (بغى). والجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣١٠، وفتح القدير: ٥/ ٤٢٠.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أسلوب حصر، أراد به أن يحصر حصوله على النعمة على علمه هو فقط، دون فضل الله تعالى وإحسانه.

والمعنى: إنما حصلت على هذه الكنوز لأجل علمي الذي استوجب حصولي عليها، لا أنها تفضل من الله تعالى وإحسان(١). وهذا يدل على أنه كان قد بلغ الذروة في الغرور والطغيان وجحود النعمة.

قال الآلوسي: "وكأن قارون بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ يريد الرد على نصحهم له بقولهم: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧] لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الكنوز من غير سبب واستحقاق من قِبَله"(٢)، فرد عليهم بزعم حصوله على تلك الكنوز بحوله وقوته دون فضل الله وإحسانه، فقال ما قال!!!

* ولما كان هذا الزعم من قارون يدل على شدة طغيانه وكفره بنعمة الله عز وجل عنَّفه الله تعالى ووبَّخه بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾، وهذا الاستفهام مراد به التعجيب من حاله، وتوبيخه على اغتراره بقوته وكثرة ماله(٣).

والمعنى: أبلغ الغرور والطغيان بقارون إلى هذا القدر من الكفر بنعمة الله تعالى، فظن أنه بعيد عن قدرة الله خارج عن إرادته، فادعى ما لا يكون إلا لله عز وجل، أولم يعلم – مما تواتر من أخبار الأمم السالفة – ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حين كفروا بنعمة الله، فأهلكهم الله، وكانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا للمال؟!! فما المانع من إهلاكه وقد فعل ما يوجب الهلاك؟. وسنة الله تعالى في الكافرين بنعمه الهلاك؛ قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ

(١) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٨٣، بتصرف.
(٢) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٣٠١٢، عن ابن زيد، وأخرج نحوه في نفس الموضع عن السدي.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٥، بتصرف.

﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨] (١).

والمظهر الثالث: تكبره(٢) بنعم الله:

ويصوره قول الله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي: فخرج على قومه في زينة عظيمة وتجملٍ باهرٍ، وسياق الآيات يدل على أنه كان يفعل ذلك تكبرا وتعاظما، وهذا من الكفر بنعمة الله تعالى؛ ولذلك انبهر بزينته وفتن بها من كانوا يرغبون في زينة الحياة الدنيا، وتمنوا أن يكون لهم مثلها، كما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: إنه لذو نصيب وافر من الدنيا.

*** وأما عقاب الله تعالى له:**

فكان القضاء عليه وعلى كنوزه، وجعله عبرة لمن يعتبر؛ قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ أي: فبسبب كفره وبغيه أهلكه الله تعالى فغيبه وغيب داره وكنوزه في الأرض، يقال: خسف المكان يخسف خسوفا: ذهب في

---

(١) مستفاد من: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٥٢، والتفسير الكبير: ٢٥/ ١٥، والجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣١٦، والبحر المحيط: ٧/ ١٢٩.

(٢) يأتي الحديث لاحقا عن التجبر بالنعم. والفرق بين التجبر والتكبر: أن التجبر والتكبر يشتركان في معنى التعالي والتعظُّم والترفع، إلا أن التجبر: فيه معنى القهر والتسلط والعتو، أما التكبر: فهو التعظُّم والترفع والتعالي المجرد [يراجع: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ص٢٤٦، ٢٤٧، وبصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٩٢، ٥٩٣].

الأرض، وخسف الله به الأرض خسفا: أي غاب به فيها، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: فما كان له من جماعة يدفعون ذلك عنه عذاب الله ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ هو في نفسه ﴿ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ أي: من الممتنعين مما نزل به من الخسف[1].

وهكذا كان كفر قارون بنعمة الله تعالى؛ بنسبتها إلى ذاته دون فضل الله وإحسانه – إضافة إلى بقية مظاهر كفره بنعمة الله– سببا في زوال النعمة عنه، حيث خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض، فما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

٢– بعض البشر:

وليست هذه الرزيلة خاصة بقارون وحده بل إن من الناس من تغرهم النعم؛ فيصنعون صنيع قارون، فينسبون حدوث نعم الله عليهم إلى أنفسهم؛ فيزيلها الله عنهم، ومن شواهد ذلك:

(أ) **قوله تعالى:** ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٩ – ٥٢].

والمعنى: يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ أي: جنس الإنسان، باعتبار بعض أفراده أو غالبها[2]. أي: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا أصابه ضر من مرض أو فقر أو غيرهما دعا الله وتضرع إليه في رفعه ودفعه،

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣١٩، وفتح القدير: ٤/ ٢٦٧. بتلخيص.
(٢) يراجع: البحر المحيط: ٧/ ٤١٥، وفتح القدير: ٤/ ٦٦٦.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلا، فإن التخويل: مختص بالتفضل، يقال: خولني، إذا أعطاك على غير جزاء(١).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾ أي قال: إنما أوتيت هذه النعمة على علم(٢)، أي: على علم مني، أو عندي؛ فكفر بنعمة الله تعالى ونسبها ذاته، دون فضل الله تعالى وإحسانه.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النعمة محنة وابتلاء له أيشكر أم يكفر، وهذا رَدٌّ لما قاله. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر(٣).

ثم ذكر الله تعالى عقابه لمن نسبوا نعمه عز وجل إلى أنفسهم؛ فقال:﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال الذين من قبلهم هذه الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾، والذين من قبلهم كقارون وغيره، فإنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا، على أن (ما) هذه نافية، أو المعنى: أي شيء أغنى عنهم ذلك؟!، على أنها استفهامية(٤).

---

(١) يراجع: الكشاف: ٤/ ١٣٦.

(٢) قيل: على علم مني بوجوه المكاسب والتجارات، وقيل: على خير عندي؛ قالهما قتادة، وقيل: على شرف أعطانيه الله؛ قاله مجاهد، وقيل: إنما أوتيت هذه النعمة على علم من الله بي وباستحقاقي. [يراجع: جامع البيان: ٢١/ ٣٠٣، ٣٠٤، والكشاف: ٤/ ١٣٦، والمحرر الوجيز: ٤/ ٦٠٤]. وليس في تحديد هذا العلم أي فائدة، والمهم أنه نسب حدوث نعم الله عليه إلى ذاته، وهذا هو كفرانه بنعم الله.

(٣) يراجع: فتح القدير: ٤/ ٦٦٦.

(٤) يراجع: البحر المحيط: ٧/ ٤١٦، وفتح القدير: ٤/ ٦٦٦.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي: فأصابهم جزاء سيئات كسبهم، أو فأصابهم سيئات هي جزاء كسبهم[1]. وهذه الإصابة هي زوال النعمة، وقد ذكرها الله تعالى في قصة قارون؛ حيث سلبه الله تعالى النعمة وخسف به وبداره الأرض؛ قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

(ب) قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

والشاهد: قول الإنسان عن نعم الله عليه: ﴿هَٰذَا لِي ﴾ أي: هذا بعلمي وبما سعيت، وأنا محقوق به[2]؛ فينسب النعم إلى ذاته ولا يرى أنها تفضل من الله تعالى[3]، ليس بحوله ولا بقوته.

وقد توعد الله تعالى هذا الإنسان بالعذاب الغليظ، فقال تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقد يكون من عذاب الدنيا زوال تلك النعم عنه، كما هي سنة الله تعالى في الكافرين بنعمه.

وهكذا رأينا كيف يكون الكفر بنعم الله تعالى بنسبتها إلى غيره عز وجل سببا في زوالها.

*****

(١) وسمي الله تعالى الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم، من باب المشاكلة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] يراجع: فتح القدير: ٤/ ٦٦٦.

(٢) قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به [جامع البيان: ٢١/ ٤٩١].

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٢١.

ثانيا: الإعراض عن شكر النعم:

الإعراض عن الشيء: الصد عنه، يقال أعرض: ولَّى مبديا عرضه، وأعرضت عن الشيء: أضربت وليت عنه(١)، وهذا يحمل معنى عدم المبالاة، والتجاهل، والسآمة والملل.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم قصة قوم أعرضوا عن نعمه فكان ذلك سببا في زوالها عنهم، وهؤلاء هم قوم سبأ.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ – ١٩].

والشاهد في الآيات: أن الله تعالى أنعم على أهل سبأ بنعم كثيرة وعظيمة، أنعم عليهم بنعمة الرزق الوفير، والأمن والاطمئنان، والسلام والأمان، في حلهم وفي ترحالهم، لكنهم أعرضوا عن شكرها، وهذا يحمل معنى الصد والسآمة، وعدم المبالاة، والتجاهل؛ فأزالها الله عز وجل عنهم، وأبدلهم بها نقما؛ حيث أرسل عليهم سيلا خرَّب ديارهم وأغرق أرضهم، وأهلك زروعهم وبساتينهم، ومزقهم الله تعالى كل ممزق، فشردهم في البلاد، وجعلهم عبرة لكل معتبر، وقصة يرويها الرواة، ومثلا لتحذير الناس من كفران النعمة.

وقد أجملت الآيات الكريمات نعم الله عليهم، وموقفهم من تلك النعم، وعقاب الله تعالى لهم.

(١) يراجع: الصحاح: ٣/ ١٠٨٤، والمفردات: ص٣٣٠، والمصباح المنير: ٢/ ٤٠٢.

*** أما نعم الله عليهم:**

فيصورها قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: والله لقد كان لقوم سبأ في قصتهم آية عظيمة دالة على الله تعالى، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. ودالة أيضا على عقاب الله تعالى لمن كفر بأنعمه، ليعتبر الناس ويتعظوا(١).

ثم بين الله تعالى نعمه عليهم فقال: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي: طائفتان من البساتين والجنان الناضرة فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار، طائفة عن يمين بلدهم، وطائفة أخرى عن شماله. "ولم يرد بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعة من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شماله، سميت كل جماعة منها جنة، لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة"(٢).

﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أي: وقلنا لهم على ألسنة رسلنا تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها: كلوا من فضل ربكم وإنعامه، واشكروه على هذه النعم. ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: بلدة كريمة التربة حسنة الهواء رغدة من النعم سليمة من الهوام والمضار، ورب غفور لفرطات من يشكره، فجمع الله تعالى لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم(٣).

*** وأما موقفهم من تلك النعم:**

فيصوره قول الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي: فصدوا عنها ولم يبالوا بها وتجاهلوا شكرها، أو المعنى: فسئموا منها وملُّوها.

---

(١) يراجع: الكشاف: ٣/ ٥٧٥، والمحرر الوجيز: ٣/ ٤١٣.

(٢) الكشاف: ٣/ ٥٧٥ بتصرف يسير.

(٣) المحرر الوجيز: ٤/ ٤١٣، ٤١٤، والتفسير الكبير: ٥٢/ ٢٠٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٤، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٢٧.

*** وأما عقاب الله تعالى لهم:**

فكان عقابا عاجلا في الدنيا؛ حيث سلبهم تلك النعم، وأبدلهم بها نقما، بسبب كفرانهم؛ قال عز وجل: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: فأرسلنا عليهم المطر الشديد المدمر المخرب، أو فأرسلنا عليهم السيل من الوادي الذي يسمى بـ"العرم"(١)؛ فأهلك بساتينهم، وخرب أرضهم، وديارهم.

وأبدلهم الله تعالى بتلك الجنان الطيبة صحراء قاحلة تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة؛ قال تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ والأُكُل: الثمر، والخَمْط: الأراك، أو كل شجر ذي شوك، أو كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأَثْل: شجر يشبه الطرفاء، والسِّدْر: النبق(٢). والمعنى: وبدَّلناهم بتلك البساتين اليانعة الغناء التي كانوا يتنعمون بها، بساتين قاحلة جرداء، ذات أُكُل مر بشع، وشيء من نبق قليل. وسمى الله تعالى البدل "جنتين" للمشاكلة والتهكم(٣)، لا لرضاه عز وجل عنهم.

وأرى والله أعلم: أنه عز وجل قد أبقى لهم هذا القليل من الثمار؛ ليكون أثرا شاهدا على نعم الله التي غمرتهم فأعرضوا عنها فزالت؛ كلما رأوه ازدادت حسراتهم وتجددت آلامهم، وكان ذلك عقابا لهم ولم يكن تكريما؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ أي: ذلك العقاب الفظيع الذي عاقبناهم به إنما

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٢٤٨، ٢٤٩، والكشاف: ٣/ ٥٧٦، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤١٤، وزاد المسير: ٣/ ٤٩٤، والتفسير الكبير: ٢٥/ ٢٠١، والبحر المحيط: ٨/ ٥٣٥.

(٢) الكشاف: ٣/ ، ٥٧٦، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤١٤، وزاد المسير: ٣/ ٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٧.

(٣) الكشاف: ٣/ ، ٥٧٦، ومدارك التنزيل: ٣/ ٥٩، والبحر المحيط: ٨/ ٥٣٦.

كان بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ أي: وما نجزى هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران.

*** نعم أخرى:**

ثم ذكر الله تعالى نعما أخرى أنعمها عليهم قبل مجيء السيل، وما فعلوا بها من الكفران، وما جوزوا به بسبب ذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾. وهذه النعم معطوفة على النعم السابقة، وإنما لم يذكر الله تعالى الكل معا، لما في التثنية والتكرير من زيادة التنبيه والتذكير(١).

والمعنى: وجعلنا بقدرتنا ورحمتنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم بين بلادهم وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين، قرى متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة، غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، وجعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل، حتى قيل: كان الغادي من قرية يقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى، إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعا ولا عطشا ولا عدوا، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء(٢).

وقلنا لهم سيروا في تلك القرى، متى شئتم من الليالي والأيام آمنين من كل ما تكرهونه، لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياما كثيرة، أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن(٣).

*** موقفهم من تلك النعم:**

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٢٥٠، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٢٨.

(٢) يراجع: المحرر الوجيز: ٤/ ٤١٥، ٤١٦، وزاد المسير: ٣/ ٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٧.

(٣) المصادر السابقة: نفس المواضع.

لقد كان موقفهم من تلك النعم أيضا الكفران، حيث بلغ بهم الإعراض عن النعم والسآمة والملل منها أن سألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين القرى المباركة مفاوز وقفارا، ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد؛ فعرَّضوا أنفسهم بذلك للسخط والعذاب؛ قال تعالى حاكيا عنهم: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾[1].

قال الزمخشري: "بطروا النعمة، وبشموا – أي: سئموا – من طيب العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المَنِّ والسلوى!!" [2].

*** عقاب الله تعالى لهم:**

لقد كان عقاب الله تعالى لهم عاجلا؛ حيث خرَّب تلك القرى المتوسطة، وجعلها قفارا لا يسمع فيها داع ولا مجيب؛ يقول تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ ﴾ والأحاديث: جمع أحدوثة، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهي والتعجب، أي: قالوا ما قالوا من سوء، وفعلوا ما فعلوا من منكر، فكانت نتيجة ذلك: أن صيرناهم أخبارا يتلهى الناس بها، ويضربون بهم المثل، فيقولون: "تفرقوا أيدى سبأ"[3]. فيتعجبوا من أحوالهم ويعتبروا بعاقبتهم ومآلهم.

﴿ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ ﴾ أي: فرقناهم كل تفريق، وفي التعبير بالتمزيق الخاص بتفريق المتصل من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا

(١) الكشاف: ٣/ ٥٧٧، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤١٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٧، والبحر المحيط: ٨/ ٥٣٨، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٢٩. بتصرف.

(٢) الكشاف: ٣/ ٥٧٧.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٢٥١، والكشاف: ٣/ ٥٧٨، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤١٦، وزاد المسير: ٣/ ٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٧،.

يخفى، أي: مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه، بحيث يضرب به الأمثال في كل فُرْقة ليس بعدها وصال[1].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: إن فيما ذكر من قصتهم لآيات عظيمة لكل صبار شكور، أي: شأنه الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاق الطاعات، والشكر على النعم[2].

ثالثا: بَطَرُ النعم:

والبطر يطلق في لغة العرب على معان كثيرة: قيل: هو دَهْشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وعدم القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها، وقيل: الطُّغيان بالنعمة، وقيل: الأَشَر – أي: مجاوزة الحد في الفرح والغرور بالنعمة كفرا بها، ومقابلتها بالتكبر والخيلاء[3] –، وقيل: غمط النعمة – أي: احتقارها والإزراء بها واستصغارها[4] –، وقيل: كراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهية[5].

وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يدل على أن بطر النعم سبب في زوالها وحلول النقم مكانها، ومن شواهد ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

---

(١) الكشاف: ٣/ ٥٧٨، والمحرر الوجيز: ٤/ ٤١٦، إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٨٧، والبحر المحيط: ٨/ ٥٣٩، وفتح القدير: ٤/ ٣٧٠.

(٣) يراجع: تاج العروس من جواهر القاموس: ١٠/ ٥٣. مادة (أشر).

(٤) يراجع: لسان العرب: ٧/ ٣٦٤. مادة (غمط).

(٥) يراجع: لسان العرب: ٤/ ٦٨، وتاج العروس من جواهر القاموس: ١٠/ ٢١٢، والمعجم الوسيط: ١/ ٦١. مادة (بطر).

فهؤلاء أقوام أنعم الله عليهم برغد العيش وسعته؛ لكنهم لم يصونوا النعمة ويحفظوا حقها، بل تبطروا عليها، إما بسوء احتمالها، أو بعدم القيام بحقها، أو بصرفها في غير وجهها، أو بالطغيان فيها، أو باحتقارها، أو بكراهيتها، أو بمقابلتها بالتكبر والخيلاء، أو بكل ذلك، أو ببعضه؛ والآية الكريمة تحتمل كل معاني البطر السابقة؛ لأنها لم تعين معنى معينا، ولأنها نصت على أن الله قد أهلك بسبب البطر أناسا كثيرين، والناس مختلفون في بطرهم، وما يقع من أحدهم قد يقع غيره من الآخر. فكان صنيعهم هذا كفرا بنعم الله عليهم، فأزالها الله عنهم، وأهلكهم، وخَرَّب ديارهم.

والمعنى[1]: يقول تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ ﴾ أي: وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال أهل مكة في الأمن وخفض العيش والدعة؛ فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر، أي: بالتكبر والخيلاء، أو الطغيان بها، أو احتقارها، أو كراهيتها، أو عدم القيام بحقها، أو سوء احتمالها، أو عدم حفظ حق الله تعالى فيها.

فكان جزاء كفرهم بنعمة الله تعالى أن دمرهم الله عن بكرة أبيهم، وخرب ديارهم؛ قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أي: فتلك منازلهم خاوية بما ظلموا، باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار، كبلاد ثمود، وقوم شعيب، وغيرهم، ﴿ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: من بعد تدميرهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ أي: إلا زمانا قليلا؛ إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها إلا قليلا؛ من شؤم معاصيهم، أي: أن الله تعالى قدر بقاءها خالية؛ لتبقى عبرة وموعظة بعذاب الله في الدنيا، ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها؛ فلا يملك التصرف فيها غيرنا، ولم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم.

---

(١) يراجع: الكشاف: ٣/ ٤٢٨، والتفسير الكبير: ٢٥/ ٥، ٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٠١، والبحر المحيط: ٧/ ١٢١، ومدارك التنزيل: ٣/ ٢٤٢، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ٢٠، وروح المعاني: ٢٠/ ٩٨، والتحرير والتنوير: ٢٠/ ١٥٠، ١٥١، وغيرها.

وهذا تخويف لأهل مكة ولمن بعدهم من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة، وقابلوها بالأشر والكفران؛ فعاجلهم الله بالعقاب في الدنيا فأهلكهم وخرَّب ديارهم.

*****

رابعا: التجبر بالنعم:

والتجبر بالنعم يعني: التكبر والعتو والتسلط والقهر بها. يقال: تَجَبَّرَ الرجل: تكبر، والجَبَّارُ من الناس: المتكبر الذي لا يرى لأَحد عليه حقّاً، والجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، ومنه قوله تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤]، وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢] أَي: متكبراً عن عبادة الله تعالى.

والجَبَّارُ من الملوك: العاتي، وقيل: كُلُّ عاتٍ جَبَّارٌ وجِبِّير. وقَلْبٌ جَبَّارٌ: لا تدخله الرحمة، وقيل: ذو كبر لا يقبل موعظة، ورجل جَبَّار: مُسَلَّط قاهر؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، أَي بِمُسَلَّطٍ فتقهرهم على الإِسلام. والجَبَّارُ: الذي يَقْتُلُ على الغَضَبِ، والجَبَّارُ: القَتَّال في غير حق؛ وفي التنزيل العزيز في قوم عاد: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وفيه أيضا قول الرجل لموسى عليه السلام: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] أَي قتَّالاً في غير الحق[1].

وهذه المعاني جميعا ترجع إلى: معنى التكبر والعتو والتسلط والقهر.

(١) يراجع: لسان العرب: ٤/ ١١٣، والقاموس المحيط: ١/ ٤٦٠، ومختار الصحاح: ١/ ١١٩، مادة (جبر).

والفرق بين التجبر والتكبر: أن التجبر والتكبر يشتركان في معنى التعالي والتعظُّم والترفع، إلا أن التجبر: فيه معنى القهر والتسلط والعتو، أما التكبر: فهو التعظُّم والترفع والتعالي المجرد(١).

وفي كتاب الله عز وجل نماذج لأقوام تجبروا بنعمه تعالى فأزالهم عنها، وأزالها عنهم؛ حيث أهلكهم وقطع دابرهم، ومن هؤلاء:

- عاد قوم سيدنا هود عليه السلام:

وردت قصة عاد في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى(٢)، وسأذكر إن شاء الله تعالى هنا من الآيات ما يتصل بموضوعنا؛ خشية الإطالة.

لقد بين الله تعالى في كتابه الكريم عِظَم نعمه عليهم، وموقفهم من تلك النعم، وما كان من عقابه عز وجل العاجل لهم.

*** أما نعمه تعالى عليهم:**

فقد ورد ذكرها في آيات كثيرة، **وعلى رأسها:** نعمة الله عليهم بإرسال سيدنا هود إليهم، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ليفوزوا بخيري الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود: ٥٠ – ٥١].

ومنها: أن الله تعالى جعلهم مستخلفين في تعمير الأرض من بعد قوم سيدنا نوح عليه السلام، وزادهم وفرة في قوة العقول وعظم الأجسام وسلامة الأبدان وقوتها، بحيث لم يكن أحد مثلهم في زمانهم(٣)؛ قال تعالى على لسان

(١) يراجع: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ص٢٤٦، ٢٤٧، وبصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٩٢، ٥٩٣.

(٢) وردت في السور الكريمة الآتية: سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، وفصلت، والأحقاف، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر، وغيرها.

(٣) يراجع: التفسير الكبير: ١٤/ ١٢٨، والتحرير والتنوير: ٨/ ٢٠٦، بتصرف.

سيدنا هود عليه السلام لهم: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومنها: أن الله تعالى جعلهم في سعة من الرزق ورغد من العيش؛ حيث أمدهم بالأنعام (الإبل والبقر والغنم)، والأولاد، والبساتين، والعيون الجارية؛ يقول تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٥].

"وقد ابتدأ سيدنا هود عليه السلام في تعداد النعم بذكر الأنعام؛ لأنها أجلّ نعمة على أهل ذلك البلد؛ لأن منها أقواتَهم ولباسهم وعليها أسفارهم، فهي سبب بقائهم، وعطف عليها البنين؛ لأنهم نعمة عظيمة بها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمتهم، وعطف الجنات والعيون؛ لأن بها رفاهية حالهم واتساع رزقهم وعيش أنعامهم"(١).

*** وأما موقفهم من تلك النعم:**

فقد كان التجبر بها والتسلط والعتو، حتى زعموا أنهم بسبب قوتهم وما لديهم من سعة بمنأى عن عذاب الله؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

والمعنى: فأما عاد فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم في الأرض، وتعاظمهم واستعلاؤهم على أهلها(٢). وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق؛ إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه؛ لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا

(١) يراجع: التحرير والتنوير: ١٩/ ١٧٠.

(٢) يراجع: الكشاف: ٤/ ١٩٨، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٥٦. بتصرف.

تُبلغ الإنسان مبلغ الخلوّ عن النقص، وليس للضعيف الناقص حق في الكبر، ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي: وقالوا على سبيل التجبر والتسلط والعتو: لا أحد أقوى منا!!، والاستفهام: للإنكار والنفي. تجبروا بنعم الله عليهم!! بقوة أجسامهم وكثرة أموالهم وعزة أمتهم، واعتقدوا أنهم ممتنعون بذلك من عذاب الله!! فبارزوا الجبار سبحانه بالعداوة، وجحدوا آياته وعصوا رسوله(٢).

ولا يخفى أن قولهم هذا كان اعتقادا صاحَبَه أفعال تجبُّر وتسلط وعتو، وإلا ما عاقبهم الله تعالى، ويؤيد ذلك وصف نبيهم هود عليه السلام لهم بالتجبر، وهو أخبر الناس بهم؛ قال تعالى على لسانه منكرا عليهم: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٠] أنكر عليهم تسلطهم على الناس، وعتوهم عليهم، وقهرهم لهم، حيث لا تجد الرأفة إليهم طريقا، ولا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا.

وقد وبخهم الله تعالى وأنكر زعمهم هذا؛ فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أعَمُوا وصُمُّوا عن الحق، ولم يعلموا أن الله تعالى الذي أوجدهم من العدم وأعطاهم ما أعطاهم من النعم هو سبحانه أشد منهم قوة، فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن فيكون. إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك، وكانوا بآيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته يجحدون؛ أي ينكرونها مع علمهم بها(٣).

*** وأما عقاب الله تعالى لهم:**

---

(١) يراجع: التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٥٦. بتصرف.

(٢) يراجع: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٤٧، والبحر المحيط: ٧/ ٤٦٩، وتفسير ابن كثير: ٧/ ١٦٩. بتصرف.

(٣) يراجع: جامع البيان: ٢١/ ٤٤٤، والبحر المحيط: ٧/ ٤٦٩، وفتح القدير: ٤/ ٧٢٦، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٥٦. بتلخيص.

فكان جزاء وفاقا؛ لقد سلبهم الله النعم، وأهلكهم عن بكرة أبيهم، وأعد لهم في الآخرة عذابا أخزى من عذاب الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦].

وقد ذكر الله هذا العقاب في آيات كثيرة، في بعضها مجمل وفي بعضها مفصل:

فأما المجمل، فقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

عبر في الآية الأولى بالإهلاك، وهو يطلق على عدة معان: منها الموت، ومنها العذاب(١)، وكلاهما قد وقع عليهم، فلم يكن موتهم هيِّناً، بل كان بعذاب شديد استأصلهم. وعبر في الآية الثانية بقطع دابرهم، أي: "استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم"(٢).

وأما المفصل: فتصوره آيات أخر، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ

(١) يراجع: المفردات في غريب القرآن: ١/ ٥٤٤.
(٢) يراجع: معاني القرآن للنحاس: ٢/ ٤٢٥.

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [القمر: ١٨ – ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٦ – ٨].

لقد منع الله ﷻ عنهم القطر حتى جهدهم ذلك، فطلبوا السقيا، فرأوا عارضا في السماء، ظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب ونقمة؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

سلط الله تعالى عليهم ريح العذاب والإهلاك، وجعلها عقيما وصرصرا وعاتية، و(العقيم): التي لا خير فيها ولا رحمة ولا بركة ولا منفعة، من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وإنما هي ريح العذاب والإهلاك[١]. و(الصرصر): الشديدة البرد الشديدة العصوف، التي لصوتها صرير، فهي تحرق لشدة بردها[٢]. و(العاتية): القوية الشديدة، عتت عليهم فلم يقدروا على ردها بل أهلكتهم[٣].

استمر هذا العذاب المهلك عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، متتابعا، لا يفتر ولا ينقطع، حتى قطعت الريح كل خير واستأصلتهم استئصالاً، وأذهبتهم وأفنتهم فلم تبق منهم أحدا[٤].

كانت الريح تقلعهم من أماكنهم وتصرعهم موتى، فيتساقطون على الأرض وهم جثث طوال عظام، كأنهم أصول نخل بلا فروع منقلع عن مغارسه. وقيل:

---

(١) يراجع: جامع البيان: ٢٢/ ٤٣٣، والكشاف: ٤/ ٤٠٦، وزاد المسير: ٨/ ٣٩، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٥٠، وفتح القدير: ٥/ ١٢٨.

(٢) يراجع: جامع البيان: ٢٢/ ٥٨٥، و٢٣/ ٥٧٢، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ٢٥٥، والكشاف: ٤/ ٦٠٢.

(٣) يراجع: الكشاف: ٤/ ٦٠٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٢٩، وفتح القدير: ٥/ ٣٩١.

(٤) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٨٨، ومعاني القرآن للزجاج: ٥/ ٢١٤، والكشاف: ٤/ ٦٠٣، ٦٠٤، وزاد المسير: ٣٩/٨، ومدارك التنزيل: ١٤٩/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٥٠/١٧، ٥١، والبحر المحيط: ٨/ ١٣٩، وفتح القدير: ١٢٨/٥.

شبهوا بأعجاز النخل، لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادهم بلا رؤوس. وقيل: كانت تقلعهم من الأرض فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم وتبين رؤوسهم من أجسادهم [1].

وهكذا كان تجبر قوم عاد بنعم الله تعالى سببا في زوالها عنهم، واستئصالهم عن آخرهم.

*****

خامسا: التكبر بالنعم:

والتكبر بالنعم: يعني التعظُّم والتعالي بها على الغير، وعدم الاعتراف بالمنعم سبحانه وتعالى. قال أهل اللغة: التكبُّر: التعظُّم، والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا[2].

وتقدم ذكر الفرق بين التجبر والتكبر، وأن التكبر يعني التعالي والتعظم المجرد، وأن التجبر يزيد عليه بأن فيه تسلط وعتو وقهر.

وما أكثر من يتكبرون بنعم الله تعالى، ويسوقهم ذلك إلى الكفر بها، فيزيلها الله تعالى عنهم، وقد ذكر الله تعالى لهؤلاء أمثلة في كتابه العزيز؛ ومنهم: قارون، وصاحب الجنتين.

– **أما قارون:** فتقدم الحديث عنه مفصلا في موضع سابق، عند الحديث عن نسبة حدوث النعم إلى غير الله تعالى، والشاهد الذي يخصنا هنا مما ذكر هناك هو المظهر الثالث من مظاهر كفره بنعم الله تعالى، وهو تكبره بنعم الله عليه، والذي يصوره قول الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا

(١) يراجع: جامع البيان: ٢٢/ ٥٨٧، والكشاف: ٤/٤٣٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٣٧، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٤٧٩، ومدارك التنزيل: ٤/١٦١، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٧١، وروح المعاني: ١٩/ ١١٣، وفتح القدير: ٥/١٧٧.

(٢) يراجع: لسان العرب: ٥/ ١٢٦– ١٣٠، ومختار الصحاح: ص٥٨٦.

ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. فارجع إليه هناك أكرمك الله.

- وأما صاحب الجنتين:

فهو أحد الرجلين الوارد ذكرهما في سورة (الكهف)، اللذين ضربهما الله تعالى مثلا، حيث قال تعالى:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢ – ٤٤].

ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات[1] مثلا لرجلين، كلاهما نموذج لطائفة من الناس:

أحدهما: صاحب الجنتين، الذي أنعم الله تعالى عليه بنعم كثيرة وعظيمة، لكنه كفر بالله وجحد تلك النعم؛ حيث تكبر بها وتعالى، ولم يشكر الله عليها،

(١) يراجع: جامع البيان: ١٨/ ١٨– ٢٩، ومعاني القرآن للنحاس: ٤/ ٢٣٨– ٢٤٧، ومعالم التنزيل: ٥/ ١٦٩– ١٧٣، وزاد المسير: ٥/ ١٣٨– ١٤٨، والكشاف: ٢/ ٦٧٣– ٦٧٧، والتفسير الكبير: ٢١/ ١٠٤– ١١٠، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٩٨– ٤١١، والبحر المحيط: ٦/ ١١٧– ١٢٥، وتفسير ابن كثير: ٥/ ١٥٧– ١٦٠، وفتح القدير: ٣/٤٠٧– ٤١٢، والتحرير والتنوير: ١٥/ ٣١٥– ١١٩. وتفسير السعدي: ص٤٧٦– ٤٧٧، وغيرها.

فعاقبه الله في عاجله؛ فسلبه تلك النعم، وهذا الرجل نموذج للأثرياء الذين تبطرهم النعم، فينسون المنعم سبحانه، ولا يرون إلا النعم؛ فيتكبرون بها ويغترون، ويحسبونها باقية لا تزول، وينكرون البعث والنشور.

والثاني: صاحبه المؤمن، العارف بربه، الراضي بما قسمه له، الشاكر له على الدوام، وهو نموذج للمؤمنين الأتقياء، المعتزون بإيمانهم، المفوضون أمورهم لربهم، الراضون به، الشاكرون له سبحانه.

وقد صورت هذه الآيات الكريمات في إيجاز نعم الله على صاحب الجنتين، وموقفه من تلك النعم، وعقاب الله تعالى له.

*** أما نعم الله تعالى عليه:**

فيصورها قول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ... ﴾.

والمعنى: واضرب يا محمد صلى الله عليه وسلم للناس مثلا رجلين، أنعم الله على أحدهما فرزقه حديقتين من أعناب، وأحاطهما بنخل كثير، وجعل وسطهما زرعا، حتى يجمعا بين القوت والفاكهة، فالعنب فيهما، والزرع في وسطهما ينتج بقولا وقمحا وأرزا وذرة وغيرها، والنخل قد حفهما من الخارج كأنه سور يطوف بهما، فكانتا مثمرتين، وكان سورهما مثمرا أيضا، ولم يكن حديدا ولا خشبا ولا بناء، بل كان نخلا حيا مثمرا يؤتي جناه.

ومن نعم الله عليه: أن كلتا الجنتين قد أثمرت بانتظام لم يتخلف ثمرها سنة عن أخرى، – كما يحدث لكثير من الناس –، وفاض ثمرها وزرعها موفورا، ولم تُنقص منه شيئا.

ومن نعم الله عليه أيضا: أن فجَّر خلال الجنتين نهرا عذبا زلالا ينساب فيهما ليسقيهما بسهولة ويسر، دائما من غير انقطاع، فكان السقي يسبح لا بآلة، وكان الماء موفورا، فلم تصب الزروع بحرمان من الماء، ولا الأرض بجفاف منه.

ومن نعم الله عليه أيضا: أن مَنَّ عليه بمال آخر، هو مال مثمر من تجارة ونحوها، حتى صار بهذه النعم من الأثرياء الكبار.

*** وأما موقفه من تلك النعم العظيمة:**

فيصوره قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

لقد كان موقفه من نعم الله عليه: الكفر والجحود؛ حيث تكبر بها وتعالى وتعظَّم، وكان لتكبره بنعم الله تعالى ثلاث صور:

الصورة الأولى: تكبره وتعاليه على صاحبه المؤمن؛ حيث قال له في تكبر وتعالٍ أثناء مبادلته الحديث: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾، أي: أنا أكثر منك مالا، وأعز أنصارًا وأعوانًا. وكأنه يقول له: أنا أشرف منك منزلة لكثرة أموالي، وأعز منك جاها لكثرة نسبي وأولادي وأعواني وأنصاري.

والصورة الثانية: عُجْبُه بما هو فيه من النعيم، واعتقاده عدم زواله وفنائه، وإنكاره البعث والنشور؛ فأصابه التكبر والتعالي والغرور؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

لقد دخل جنته وهو ظالم لنفسه بالكفر والتكبر والتعالي، وهو يقول: ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبدا، وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة. ويُقْسِمُ: إن

فُرِضَ وقوعها – كما تزعم أيها المؤمن – ورُجعتُ إلى ربي لأجدنَّ عنده أفضل من هذه الحديقة مرجعًا ومردًا؛ لكرامتي ومنزلتي عنده.

والصورة الثالثة: تكبره على الحق وعدم قبوله النصيحة:

حيث نصحه صاحبه المؤمن وذكَّره بالله تعالى، وأعلمه أن الفضل بيد الله أولا وآخرا، وأنه عز وجل المعطي المانع؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: أكفرت بالله الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، حيث خلق أباك آدم من تراب، ثم خلقك من ماء مهين، ثم واصل عليك النعم، حتى سواك رجلا كامل العقل والأعضاء والجوارح والحواس، وبذلك يسر لك الأسباب، وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف تكفر بالله، وكيف تجحد نعمه، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيرا من جنتك؟!! هذا ما لا يجوز في عقل عاقل؛ لكنه تمادي في كفره وتكبره، وجحد الحق، ولم يقبل النصيحة، فعاقبه الله تعالى.

*** وأما عقاب الله تعالى له:**

فيصوره قول الله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

لقد كان عقاب الله عز وجل له عاجلا غير آجل؛ حيث عاقبه بالسلب بعد الإعطاء، وبالإفقار بعد الإغناء. سلب الله منه النعم بسبب كفره وتكبره بها، جزاء وفاقا، وتحقق ما قاله صاحبه المؤمن. فوقع الدمار والهلاك بجنتيه، فهلك كل ما فيهما، وصار يضرب إحدى يديه على الأخرى حسرة وندما على ما أنفق في عمارتها وإصلاحها، وهي خاوية قد سقط بعضها على بعض، ويقول نادما في وقت لا ينفع فيه الندم: يا ليتني عرفت نِعَمَ الله وقُدْرتَه فلم أشرك به أحدًا.

ولم تكن له جماعة ممن افتخر بهم فيما سبق يلتجئ إليهم وينتصر بهم من عقاب الله النازل به، وما كان ممتنعا بنفسه وقوته عن إهلاك الله لجنتيه وانتقامه منه. فلم ينفعه ماله، ولا جاهه، ولا أنصاره وأعوانه، ولا حتى نفسه التي بين جنبيه.

وهكذا كان تكبر صاحب الجنتين بنعم الله تعالى سببا في زوالها، وحلول النقم مكانها؛ ليتعظ الناس بهذا المثل ويعتبروا، ويؤدوا حق النعم بالشكر، ويعلموا أن التكبر بها سبب في زوالها.

*****

سادسا: عدم أداء حق الله تعالي فيها:

ذلك لأن أداء حق الله تعالى في النعم يعد جزءا لا يتجزأ من شكره تعالى عليها، فإذا امتنع المرء عن أداء حق الله في النعمة فقد جحدها، واستحق بسبب ذلك زوالها.

ولله تعالى في كل نعمة حق هو من شكره عليها، وشكر كل نعمة يكون من جنسها، فحق الله تعالى في المال مثلا: الزكاة والصدقة، وفي العين: استخدامها في طاعة الله، والنظر بها إلى ما أحل الله، ... وهكذا. وممن سلب الله تعالى منهم النعمة بسبب امتناعهم عن أداء حقه تعالى فيها:

- (أصحاب الجنة) الوارد ذكرهم في سورة (القلم):

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم: ١٧ – ٣٣]. ذكر الله تعالى في هذه الآيات الموجزة نعمه عليهم، وموقفهم منها، وعقاب الله تعالى لهم.

*** أما نعم الله تعالى عليهم:**

فقد أجملها عز وجل في كلمة واحدة؛ حيث أنعم عليهم بجنة قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، والجنة في اللغة: "الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان، قال أبو علي الفارسي: لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة"(١).

وهذا يعني: أن هذه الجنة كانت مشتملة على أنواع الثمار والفواكه؛ ويعني أيضا: أنهم كانوا يعيشون في رغد ويسر وسعة. ولعل في تعريف جنتهم بـ (أل) الدلالة على عظمتها وكثرة ما فيها من الزروع والثمار، فلعلها لعظمتها وكثرة ما فيها من الخيرات كانت معروفة مشهورة.

والمعنى: إنا بعظمتنا اختبرنا أهل مكة بالنعم مثل ما اختبرنا أصحاب البستان بالنعم(٢).

وسياق الآيات يدل على أن الله تعالى قد أنعم عليهم بجنة وحسب (٣)، ورثوها عن أبيهم، أو كانت نتيجة سعيهم واجتهادهم، فلا علاقة لذلك بالمقصود

---

(١) يراجع: لسان العرب: ١٣/ ١٠٠.

(٢) البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير، وقد يكون بالشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، أي: نختبركم بالشر؛ لنعلم كيف صبركم؟ وبالخير؛ لنعلم كيف شكركم. [يراجع: تفسير مشكل القرآن لابن قتيبة: ص٤٦٩، والمفردات في غريب القرآن: ١/ ٦١].

* **وأرى والله أعلم:** أن البلاء هنا بلاء بالخير، ويؤيده السياق، فقد ابتلوا بالنعمة ليشكروا الله عليها، لكنهم جحدوها ولم يشكروا، وأما بلاؤهم بالشر فقد جاء لاحقا حين جحدوا بالنعمة وكفروها. وهذا اختيار كثير من المفسرين [يراجع: المحرر الوجيز: ٥/ ٣٢٢، والتفسير الكبير: ٣٠/ ٧٧، والجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٣٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨/ ١٩٥، واللباب في علوم الكتاب: ١٥/ ٤١٢، ومحاسن التأويل: ١٦/ ٥٨٩٧، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٨٠. وغيرها].

(٣) ذكر المفسرون في قصة أصحاب الجنة روايات ليس في العلم بها أي فائدة [يراجع: جامع البيان للطبري: ٢٣/ ٥٤٣، والنكت والعيون: ٦/ ٦٧، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٤٩،

من القصة، وأنه كان للمساكين فيها حق، والظاهر أنه كان حقا شرعيا – ولم يصرح بذلك أحد من المفسرين –؛ لأنه لو كان تبرعا فرضه أبوهم على نفسه، أو فرضوه هم على أنفسهم ما كان الله ليسلبهم النعمة بسبب منعهم إياه.

*** وأما موقفهم من نعم الله تعالى عليهم:**

فقد كان الكفران؛ حيث منعوا حق الله تعالى في نعمه عليهم؛ بأن بيتوا نيتهم وأقسموا على حرمان المساكين من حقهم فيها، وأخذوا في أسباب ذلك؛ قال تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: إذ حلفوا ليقطعن ثمرها حين يصبحون قبل أن يعلم المساكين أو يشعروا(١). ولا يستثنون حق الفقراء والمساكين، أو: ولا يستثنون منهم أحدا فيعطوه حقه(٢).

وقد صورت الآيات بعْدُ شدة عزمهم وإقدامهم ومضيهم في منع المساكين حقهم؛ قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فنادى بعضهم بعضا حين الصباح إلى المضي إلى ميعادهم، بأن اخرجوا باكرين على بستانكم وضيعتكم، إن كنتم حاصدي زرعكم، أو إن كنتم

والوسيط للواحدي: ٤/ ٣٣٧، والجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٣٩، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٤١، وتفسير ابن كثير: ٨/ ١٩٧، وغيرها من كتب التفسير].

(١) يراجع: البحر المحيط: ١٠/ ٢٤١. والصَّرْمُ: القطع البائن، يقال: صَرَمَ الشيء: قطعه، وصَرَمَ النخلَ: جَدَّه، وأَصْرَمَ النخلُ: حان له أن يُصْرَم [يراجع: لسان العرب: ١٢/ ٣٣٤، ومختار الصحاح: ص٣٧٥].

(٢) وقيل: المعنى: ولا يقولون إن شاء الله، وقيل: ولا يتوقفون في رأيهم، ولا ينتهون عنه، ولا يرجعون فيه. والأرجح ما ذكرته، فهو أوفق بالسياق. [يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ١٧١، والنكت والعيون: ٦/ ٦٧، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٤٩، وزاد المسير: ٨/ ٣٣٥، ٣٣٦، والتفسير الكبير: ٣٠/ ٧٧، ٧٨، والتسهيل: ٢/ ٤٠٠، وغيرها].

أهل عزم وإقدام على رأيكم[1]، فمضوا إلى حرثهم وهم يتسارُّون بينهم، خوفا من أن يشعر بهم المساكين، ويقول بعضهم لبعض: لا يدخلنّ جنتكم اليوم عليكم مسكين[2]. وغدوا إلى جنتهم ﴿ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴾ أي: على غيظ وغضب قاصدين بسرعة، يظنون أنهم قادرون على صرامها، ومنع المساكين من خيرها[3].

*** وأما عقاب الله تعالى لهم:**

فكان عاجلا غير آجل؛ حيث سلب النعمة منهم؛ لأنهم عقدوا نيتهم على منع حق الله تعالى في النعمة، وأخذوا في أسبابه، فعوقبوا بنقيض قصدهم.

قال تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ ﴾ أي: فطرق جنتهم ليلا طارق من عذاب الله وهم نائمون غافلون عما جرت به المقادير[4]. يقال: طاف به وعليه: طرقه ليلا[5]. ﴿ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ ﴾ أي: فاحترقت فصارت سوداء كالليل المظلم، أو: فاحترقت حتى صارت يابسة بيضاء كالنهار، أو: فأصبحت كالبستان الذي قطعت ثماره بحيث لم يبق منها شيء[6].

---

(١) يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ٥٤٦، والكشاف: ٤/ ٥٩٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٤٢.

(٢) يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ٥٤٦، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٤٢.

(٣) قال ابن الأعرابي: "الحَرْدُ: الْقَصْدُ، والحَرْدُ: الْمَنْعُ، والحَرْدُ الْغَيْظُ وَالْغَضَبُ، قال: ويجوز أن يكون هذا كله معنى قوله تعالى: ﴿ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ ﴾ [لسان العرب: ٣/ ١٤٥] ويراجع أيضا: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٧٦، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٢٠٧، وجامع البيان: ٢٣/ ٥٤٦ – ٢٤٩، والكشاف: ٤/ ٤٩٠، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٠، ولسان العرب: ٣/ ١٤٥، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٤٢.

(٤) يراجع: جامع البيان: ٢٣/ ٥٤٣، والتفسير الكبير: ٣٠/ ٧٨.

(٥) يراجع: لسان العرب: ٩/ ٢٢٥، مادة (طوف).

(٦) يطلق لفظ (الصريم) في اللغة على معان عدة: قيل: هو الليل، وقيل: هو النهار، وقيل: هو "فعيل" بمعنى "مفعول". وسمي الليل والنهار بذلك؛ لأن كلا منهما ينصرم عن

* * * * *

سابعا: كثرة المعاصي:

فمن عصى الله سبحانه كان معرضا لزوال النعم عنه؛ لأنه من شكر الله تعالى على نعمه أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر. ممن أزال الله تعالى عنهم بعض نعمه بسبب معاصيهم:

- **اليهود:**

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة[1] جرائم اليهود ومعاصيهم وكفرهم بنعم الله عليهم، ذكر في هذه الآية الكريمة عقابه العاجل لهم في الدنيا فحرَّم عليهم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾: فبسبب ظلم عظيم من اليهود حرَّمنا عليهم طيباتٍ من المآكل وغيرها، كانت حلالا لهم قبل ذلك؛ عقوبة لهم على هذا الظلم العظيم، أي: ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه، والطيبات التي حرمت عليهم هي ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

صاحبه. [يراجع: لسان العرب: ١٢/ ٣٣٤، مادة (صرم)، وجامع البيان: ٢٣/ ٥٤٤، ٥٤٥، ، والكشاف: ٤/ ٤٩٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٢٤٢].

(١) من قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ... ﴾ [النساء: ١٥٣]، الآيات.

أخرج الطبري عن قتادة: "عوقب القوم بظلم ظلموه وبَغْيٍ بَغَوْه، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وبظلمهم"(١).

وفي هذا التعبير القرآني ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ثلاث دلالات على عظم جرم اليهود وعصيانهم:

الأولى: تنكير الظلم في قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾، فهذا التنكير يفيد التبشيع.

والثانية: التنوين في قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾ أيضا، فهو يفيد التبشيع، أي: تبشيع الظلم الذي ارتكبوه؛ حيث إنه جامع لجرائمهم الواردة في الآيات السابقة، من نقضهم ميثاقهم الذي واثقوا ربهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، وقولهم البهتان على مريم، إلى آخر ما وصفهم الله به في كتابه الكريم.

والثالثة: التعبير بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ فإن ذِكْرَهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عِظَمِ ظلمهم، إذ صدر عنهم هذا الظلم بعد ما هادوا، أي: تابوا من عبادة العجل، وادعوا أنهم من أهل التوراة والرجوع إلى الحق(٢).

﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ أي: وبصدهم عن سبيل الله ناساً كثيراً أو صداً كثيراً، ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي: في التوراة، ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي: بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ أي: من اليهود المصرّين على الكفر، لا لمن تاب وآمن من بينهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وجيعا يخلص إلى قلوبهم، سيذوقونه في الآخرة كما ذاقوا في الدنيا عقوبةَ التحريم(٣).

---

(١) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان: ٩/ ٣٩١.

(٢) يراجع: تفسير أبي السعود: ٢/ ١٥٣، ومحاسن التأويل: ٣/ ٤٤٥، ٤٤٦، والتحرير والتنوير: ٦/ ٢٦.

(٣) يراجع: جامع البيان: ٩/ ٣٩١، ومعالم التنزيل: ٢/ ٣٠٨، ٣٠٩، والكشاف: ١/ ٥٩٠، والوسيط للواحدي: ٢/ ١٣٨، ١٣٩، والبحر المحيط: ٤/ ١٣٤، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٤١٥، وتفسير أبي السعود: ٢/ ١٥٣، ومحاسن التأويل: ٣/ ٤٤٥، ٤٤٦، والتحرير والتنوير: ٦/ ٢٦.

وهكذا كانت المعاصي سببا في زوال النعم، نسأل الله تعالى دوام النعم، والمعونة على شكرها.

*****

ثامنا: استخدامها في معصية الله(١):

ومن أسباب زوال النعم أيضا استخدامها في معصية الله تعالى؛ إذ عين الشكر أن تستخدم نعم الله تعالى في طاعته؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]،

وهذا السبب خاص بالمؤمنين، لا يشمل الكافرين؛ إذ ليس بعد الكفر ذنب، وبعض الشواهد القرآنية الكريمة الواردة في الأسباب السابقة تصلح لهذا السبب، فلا أطيل بذكر نماذج أخرى. لأن كل من باشر سببا من تلك الأسباب السابقة لابد أن يستعين على ذلك السبب بنعم الله تعالى، لأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى الذي وهبه نعما يستطيع بها مباشرة الأسباب.

قال ابن رجب: "فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمة الله وبدلها كفرا، وهو جدير أن يُسْلَبَها"(٢).

وقال أيضا: "فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خُلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد؛ لأنها خلقت ليدفع بها عن

(١) أشار علي بعض أساتذتي الكرام بجعل هذه الصورة من صور كفران النعم سببا عاما تندرج تحته الأسباب السابقة؛ ولم أر ذلك وآثرت إدراجها جميعا تحت عنوان الكفران، أولا: لأن الله تعالى قد عبر في كتابه الكريم بالكفر في مقابلة الشكر؛ حيث قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]. ثانيا: لأن الكفران يندرج تحته ما يقع من المؤمن وما يقع من الكافر، أما المعصية فلا تتصور إلا من المؤمن فقط، إذ ليس بعد الكفر ذنب. ، والله تعالى أعلم.

(٢) يراجع: لطائف المعارف لابن رجب: ص٢٩١.

نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذى بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتها، إذا الإبصار يتم بها، فالعين خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ... فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها، لإقدامه على تلك المعصية(١).

وخلاصة الأمر:

أن هذه هي أسباب زوال النعم التي استنبطها من كتاب الله تعالى، ويجب على المؤمن أن يحذر منها جميعا. فإذا قارف أحد واحدا منها أو أكثر كان معرضا لزوال النعم عنه، لكن أمره موكول إلى الله تعالى، يفعل ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فلا يجب على الله تعالى شيء، لا إثابة الطائع ولا عقاب العاصي، فإن شاء أزال نعمه عنه، وإن شاء تركه متمتعا بها إمهالا له واستدراجا؛ كما قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القلم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٧].

وإذا كانت الآيات الكريمات في ذلك المقام واردة في شأن من سبق من الأفراد والأمم، فإنها بلا شك تنسحب علينا نحن المسلمين، ويجب علينا أن نأخذ أنفسنا بها، لأننا مخاطبون بكل حرف في كتاب الله تعالى. والله تعالى أعلم.

*****

(١) يراجع: مختصر منهاج القاصدين لابن رجب: ص٣٤٧- ٣٤٩.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فقد أوضحت هذه الدراسة العديد من النتائج، والتي كان من أهمها ما يأتي:

١- أنه يجب على المؤمن أن يأخذ بأسباب زيادة النعم، ويكون على يقين أن عمله هذا لا يوجب له على الله تعالى شيئا، فإن الله تعالى لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء، فإن زاده الله تعالى فبفضله، وإن منعه الزيادة أو سلب منه النعمة فبعدله، لكنه تعالى هو الكريم الرحيم، وقد وعد بالزيادة على الشكر، وتوعد بالسلب على الكفران، والله تعالى وعده الحق، وقوله الصدق، وهو عز وجل لا يخلف الميعاد. وما دام العبد قد أخذ بالأسباب، فقد قام بما أمره الله تعالى به، والله تعالى يفعل ما يشاء وفق حكمته وإرادته، والله تعالى أعلم

٢- تبين لي من خلال تدبر آيات القرآن الكريم أن أسباب زيادة النعم ترجع إلى سببين، هما: الإيمان بالله تعالى. وشكر الله تعالى على نعمه.

٣- تبين لي من خلال تدبر آيات القرآن الكريم أنه لابد للقيام بواجب شكر الله تعالى على نعمه من مقدمة ضرورية، وهي: طلب العون من الله تعالى للقيام بواجب الشكر؛ لأن الإنسان لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى، ولولا توفيق الله تعالى ومعونته له ما فعل شيئا.

٤- لكي يقوم المؤمن بواجب الشكر على الوجه الكامل ويكون أهلا للزيادة إن شاء الله تعالى يجب عليه أن يأتي بجميع أركان الشكر التي تضمنها كتاب الله تعالى، وهي: شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر الجوارح.

٥- يمكن تقسيم أسباب زوال النعم كما وردت في القرآن الكريم إلى سببين رئيسين: السبب الأول: الكفر بالله تعالى. والسبب الثاني: كفران النعم، ويندرج

تحته أسباب فرعية، وهي إجمالا: نسبة حدوث النعم لغير الله تعالى، والإعراض عن شكر النعم، وبَطَرُ النعم، والتجبر بالنعم، والتكبر بالنعم، وعدم أداء حق الله تعالى فيها، وكثرة المعاصي، واستخدامها في معصية الله.

٦- إذا قارف أحد واحدا من أسباب زوال النعم أو أكثر كان معرضا لزوالها عنه، لكن أمره موكول إلى الله تعالى، يفعل ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فلا يجب على الله تعالى شيء، لا إثابة الطائع ولا عقاب العاصي، فإن شاء أزال نعمه عنه، وإن شاء تركه متمتعا بها إمهالا له واستدراجا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

وأخيرا: فإني أوصي نفسي والمسلمين عامة وطلاب العلم خاصة بالاعتناء بكتاب الله تعالى قراءة وحفظا، وسماعا وتفسيرا، كما أوصي نفسي وإياهم بالتخلق بخلقه، وجعله قائدا لنا في هذه الحياة. كما أوصي نفسي وإياهم بأن نحسن جوار نعم الله علينا فإنه قلما زالت نعمة عن قوم فعادت إليهم.

والله تعالى أسأل أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله في الأولى والآخرة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه:

دكتور/ ربيع يوسف شحاته الجهمي
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم تبارك الذي نزله

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لشهاب الدين الدمياطيّ، الشهير بالبناء، تحقيق: أنس مهرة، ط/ دار الكتب العلمية –الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ.
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت – بدون تاريخ.
٣- إعراب القرآن وبيانه: لمحي الدين الدرويش، ط/دار ابن كثير، بيروت، لبنان.
٤- إعراب القرآن الكريم: لأحمد الدعاس، وآخرين، ط/ دار المنير ودار الفارابي – دمشق، الأولى ١٤٢٥هـ.
٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ.
٦- البحر المحيط في التفسير: للإمام أبي حيان، صدقي جميل، ط/ دار الفكر – بيروت – الأولى ١٤٢٠هـ.
٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار. ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
٨- تأويل مشكل القرآن: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/ دار التراث، القاهرة، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
٩- التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
١٠- التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم ابن جزيء الكلبي تحقيق: د/ عبد الله الخالدي، ط/ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ.
١١- تفسير غريب القرآن: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط/ دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
١٢- تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز، الثالثة، ١٤١٩هـ.
١٣- تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
١٤- التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للدكتور سيد طنطاوي، ط/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى.
١٦- تيسير الكريم الرحمن: للشيخ عبد الرحمن السعدي تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط/ مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٧- الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبى، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.
١٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
١٩- الجدول في إعراب القرآن الكريم: تأليف: صافى محمود بن عبد الرحيم، ط/٣ ، دار الرشيد، دمشق، وبيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٢٠- الحجة في القراءات السبع: للإمام الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، ط/٤، دار الشروق، بيروت، ١٤٠١هـ.
٢١- حجة القراءات: للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني ط/ دار الرسالة.
٢٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، ط/ دار القلم، دمشق.
٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الآلوسي البغدادي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.
٢٤- زاد المسير في علم التفسير: للإمام عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الأولى – ١٤٢٢هـ.
٢٥- السبعة في القراءات: للإمام أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، تحقيق: د/ شوقي ضيف، ط/ دار المعارف – مصر، الثانية، ١٤٠٠هـ.
٢٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
٢٧- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: للإمام أبي بكر السجستاني، تحقيق: محمد جمران، ط/ دار قتيبة، سوريا، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م.
٢٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧هـ.
٣٠- الكشف والبيان: للإمام الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٣١- لباب التأويل في معاني التنزيل: للإمام الخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى – ١٤١٥هـ.
٣٢- اللباب في علوم الكتاب: لابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
٣٣- لطائف الإشارات: للإمام القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الثالثة.
٣٤- المبسوط في القراءات العشر: للإمام أبي بكر ابن مِهْران، تحقيق: سبيع حمزة ، ط/ مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٩٨١م.
٣٥- محاسن التأويل: للإمام القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط/ دار الكتب العلمية، الأولى، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.
٣٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للإمام أبي البركات النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط/ دار الكلم الطيب، بيروت، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
٣٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن: للإمام البغوي، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، ط/ دار إحياء التراث العربي –بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ.
٣٩- معاني القرآن: للإمام أبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الأولى.
٤٠- معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
٤١- المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.
٤٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٤٣- النكت والعيون: للإمام أبي الحسن الماوردي البصري، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

٤٤- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن الواحدي تحقيق: عادل عبد الموجود، وآخرين، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

ثالثا: كتب الحديث وعلومه:

٤٥- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: للحافظ أبي بكر البيهقي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى – ١٤٠٥هـ.

٤٦- سنن أبي داود: للإمام أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٤٧- سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٤٨- سنن النسائي الكبرى: للحافظ أبي عبد الرحمن النسائي تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت، الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٩- شعب الإيمان: للحافظ أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط/ مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م.

٥٠- صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥١- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٥٢- المستدرك على الصحيحين- للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

رابعا: كتب العقيدة، والفتاوى:

٥٣- الاقتصاد في الاعتقاد: للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق: عبد الله الخليلي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

٥٤- قواعد العقائد: المؤلف: للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق: موسى محمد علي، ط/ عالم الكتب – لبنان، الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٦- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: للإمام أبي المعالي الجويني، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: فوقية حسين محمود، ط/ عالم الكتب – لبنان، الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥٧- متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي، ط/ دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦، ١٩٩٥م.

٥٨- مجموع الفتاوى: لتقي الدين ابن تيمية تحقيق: عبد الرحمن قاسم، ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

خامسا: كتب السيرة والتراجم:

٥٩- تهذيب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط دار الفكر، الأولى، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٦٠- سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وزميله، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، التاسعة ١٤١٣هـ.

٦١- السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط/ مصطفى البابي الحلبي، مصر، الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

خامسا: كتب الآداب السلوك:

٦٢- أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، ط/ دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٦٣- إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط/ دار المعرفة، بيروت.

٦٤- المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: لابن رجب الحنبلي، ط/ دار ابن حزم للطبع والنشر، الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٦٥- مختصر منهاج القاصدين: لابن قدامة المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط/ مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٦٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن القيم الجوزي، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٦٧- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

سادسا: كتب اللغة والمعاجم والأدب:

٦٨- تاج العروس من جواهر القاموس: للإمام محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.

٦٩- التعريفات: للإمام علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء، ط/ دار الكتب العلمية، الأولى، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٧٠- التوقيف على مهمات التعريف: لزين الدين المناوي القاهري، ط/ عالم الكتب، القاهرة، الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٧١- الصحاح للإمام إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط/ دار العلم للملايين، بيروت، الرابعة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٧٢- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ط/ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
٧٣- لسان العرب- للإمام محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/١، بدون تاريخ.
٧٤- مختار الصحاح: لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط/ المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت، الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٧٥- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي ط/ المكتبة العلمية – بيروت.
٧٦- معجم البلدان: لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ط/ دار صادر، بيروت، الثانية، ١٩٩٥م.
٧٧- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/ دار الدعوة، القاهرة.
٧٨- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، وزميله، ط/ المكتبة العلمية، بيروت (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).

*****

فهـــرس الموضـــوعات

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة: أهمية البحث، وخطته، ومنهجه.	٤٢٣
تمهيد: المراد بنعم الله تعالى، والمراد بالأسباب وحكم الأخذ بها.	٤٢٧
المبحث الأول: أسباب زيادة النعم في ضوء القرآن الكريم	٤٣٧
المطلب الأول: السبب الأول والرئيس: الإيمان بالله تعالى.	٤٤٠
المطلب الثاني: السبب الثاني: القيام بشكر الله تعالى على نعمه.	٤٥٠
المبحث الثاني: أسباب زوال النعم في ضوء القرآن الكريم.	٤٥٨
المطلب الأول: السب الأول: الكفر بالله تعالى.	٤٦٢
المطلب الثاني: السبب الثاني: كفران النعم.	٤٦٧
الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.	٥٠٦
فهرس المصادر والمراجع.	٥٠٨
فهرس الموضوعات.	٥١٤